ابو العلاء المعري في مرآة طه حسين
(قراءة نقدية)

سامي شهاب احمد
مدرس مساعد
كلية التربية/جامعة كركوك

الخلاصة
يتضمن هذا البحث قراءة نقدية في كتب طه حسين الثلاثة التي الفها حول ابي العلاء المعري لاستكناه خطابها النقدي ،اذ تناول فيها جوانب عدّة من حياة المعري فضلا عن تحليل مستفيض لشعره افرز في النهاية انطباعا نقديا واضحا يستدعي الوقوف عليه .وتأتي اهمية البحث من جانبين :الاول هو ابراز مكانة المعري لدى الناس على اختلاف مشاربهم وتلوناتهم الفكرية والفلسفية ومدى اهميته بالنسبة لطه حسين تحديدا ،والجانب الآخر هو ما يتعلق بالكشف عن مضامين خطاب طه حسين النقدي في كتبه الثلاثة التي ربما اسست لخطابه الشامل في مؤلفاته الاخرى .وتضمن البحث تعريفا بابي العلاء والقراءة النقدية الى جانب قراءة الكتب الثلاثة قراءة نقدية موضوعية بعيدة عن الذوقية وحسب التسلسل الزمني للتأليف وصولا الى النتائج العامة .

المقدمة

تحتمل الساحة الادبية فيض الخطابات النقدية كلها، التي تتكىء بدورها على النصوص الادبية الابداعية عبر تحليل مضامينها وبيان جوانبها الجمالية وتعيين المؤثرات البارزة التي ترقى بالعمل نحو مصاف الابداع من اجل توصيل او تقريب التجربة او الفكرة المتشظية في النص الى المتلقي بمنظار موضوعي وباطار متزن ومرن .وكل ما يخالف نظم الموضوعية كالذوقية التأثيرية مثلا لايمكن زجّه في ميدان النقد باي شكل من الاشكال . وعادة ما تكون الخطابات متلونة ومتشعبة تبعا للتنوع الايديولوجي والنظرية او التيار المسيطر على فكر الناقد . فالناقد اسير فكره وذوقه ومذهبه ومنهجه والتيار الفكري الذي يسيطر عليه بحيث تأتي ملامح نقده واضحة لاتخرج عن هذا المسار في جميع مؤلفاته ،مع بعض التغييرات التي قد تطرأ بسبب الازدياد المعرفي او الاصطدام مع تقنيات تلك النظرية او ذلك التيار ..وهذا يعني ان الاختلاف يحصل بين ناقد وآخر حسب ما ورد وبين خطابات الناقد نفسه بين الحين والحين . وانطلاقا من هذا التنوير ارتأت محاباتنا النقدية زج نفسها في متاهة القراءة النقدية وتحديدا محاورة الخطاب النقدي لطه حسين الخاص بابي العلاء المعري الشاعر اللغوي بعد قراءة كتبه الثلاثة التي الفها حوله للتوصل الى ما في هذا الخطاب من خطوط واشارات صريحة مرتهنة بالموضوعية او خفية مستهجنة تتطلب استقصاءها وابرازها علنا على السطح النقدي . وتأتي اهمية اختيارنا لهذا الموضوع لسبب بسيط لكنه وجيه بعض الشيء، وهو التركيز على ابي العلاء المعري وطه حسين في ادبنا العربي .. اذ ان تأليف طه حسين ثلاثة كتب عن ابي العلاء وشرحه اللزوميات وجمعه مع مجموعة من الاساتذة الباحثين المختصين كل ماقيل عن المعري في كتاب ضخم وقع تحت عنوان (تعريف

القدماء بـابي العـلاء) وكتابـة المقـالات حولـه فـي الصـحف والمجـلات الدوريـة والعلميـة والمشـاركة فـي المهرجانات العلائية تمثل دعوة صريحة منه بمكانته الفذة التي لايمكن مجاراتها او مباراتها ..وحتما ان السادية الفكرية لديه مهدت الطريق لاكتمال رؤاه النقدية وان ازدياد استبصاره بمغالق الالغاز التاريخية عبّد ذلك الطريق كله. مما ادى هذا الامتشاج الى تشظي الاضاءة النقدية وانصهارها في بوتقة الخطاب العام .. هذا التركيز لم يأت عبثا او شططا، وانما هو من رحم التقصد لغرض ابراز رفعة ومكانة المعري والتركيز على فضاءات دلالية غير موجودة في طروحات من سبقه في هذا المجال.

وقد جاءت الدراسة في البحث المتواضع الذي بين يدي القارىء الكريم في تمهيد وقراءة عامة لكتب طه حسين الثلاثة مدعومة بمحاورات واستنتاجات ..وتضمن التمهيد نقطتين اساسيتين: الاولى قدمت عرضا مبسطا لتاريخ ابي العلاء من حيث اسمه وعلمه وآثاره ووفاته .والثانية قدمت اهمية القراءة النقدية وقدرتها على فرزنة جماليات الخطاب، لاسيما اذا ما كان الخطاب نقديا ، مع بيان مدى الاضطراب والتنوع في تلك الخطابات تبعا لافكار وتيارات النقاد.

اما بالنسبة للقراءة النقدية فاننا درسنا الكتب بشكل متعمق وتفاعلنا معها وحاورناها باسلوب هادىء وهادف قدم للقارىء قدرا من الرؤى التي اعلنها او استتر خلف ستارها المؤلف ..وجاءت الدراسة لتعلن من التسلسل الزمني التاريخي وتدا يستند عليه في قراءة كتبه ، فكان كتاب تجديد ذكرى ابي العلاء الومضة الاولى التي اطل منها الخطاب الطاهوي علينا ،ثم مع ابي العلاء في سجنه وصولا الى صوت ابي العلاء . ولم ينته الامر بمجرد التقوقع في ميدان العرض والتحليل بل تعدّى الى صوب الاستنتاجات والهيكلة العامة لطروحاته ، ومن ثم الى تأصيل الاطر الخاصة بخطابه على مدار اشتغاله في الكتب ومدى انبعاثه وتجدد حيوته في مؤلفاته الاخرى . وعادة ما يتطلب اي عمل خلاصة له تضم بين جنباتها القيم المهمة التي تم التوصل اليها . لذا كانت الخاتمة (الخلاصة) مرسى امينا لعرض ما ورد وتواتر في متن البحث من استنتاجات .وختاما نسأله تعالى الموفقية والسداد خدمة للعلم والمعرفة ، ونلتمس من قارئنا المعذرة على كل ما لم يستغه او يرضي رغباته .

التـمـهـيـد

١- ابو العلاء المعري (نبذة سريعة)

يفتخر تراثنا الادبي العربي بانه ضم بين طياته شعراء فحولا اغنوا افكارنا تأملا واشبعوا انفسنا ملذة لما كتبوه وسطروه في شعرهم من آراء وافكار ،وما العصر العباسي الا عصر ازدهرت فيه الثقافة وارتقى فيه الشعر الى اعلى قمم الهرم الابداعي وانتج لنا شعراء كبارا لايمكن للتاريخ نسيانهم،ومن هؤلاء الافذاذ شاعر المعرة والعرب ابو العلاء المعري .

وكثيرا ما اختلف المؤرخون وكتاب السير والتراجم حوله فمنهم من يجده زاهدا ومنهم من يجده ملحدا كافرا ومنهم من يقف موقف الحياد بين الاثنين ومنهم من لا رأي له عنه،وهناك من يجده اديبا بينما الآخر يرى فيه فيلسوفا ..واوصاف اخرى ومتاهات كثيرة لايسعنا ذكرها في هذا البحث المتواضع .لذا سنقدم نبذة سريعة عنه ..

ابو العلاء هو ((احمد بن عبد الله بن سليمان بن داوود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن ارقم بن انور ابن اسحم بن النعمان ويقال له الساطع الجمال بن عدي بن عبد غطفان بن عمرو بن يربح بن خزيمة بن تيم الله بن اسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة)) (١).

ولد كما تذهب اغلب الروايات سنة ٣٦٣هـ في بلدة معرة النعمان واصيب بمرض الجدري وهو بعمر الثلاث سنوات مما افقده عينه اليسرى كاملة وتغشى اليمنى بياض منع عنه البصر (٢) حتى انه لم يتذكر من الالوان سوى الاحمر بدلالة قوله : ((لا اعرف من الالوان الا الاحمر لاني البست في الجدري ثوبا مصبوغا في العصفر لا اعقل غير ذلك)) (٣) كما اجمع القدامى والمحدثون على ذكائه

وفطنته واطلاعه الواسع على اللغة وشواهدها وقدرته في الفلسفة ،ومن فرط ذلك الذكاء قيل انه قال الشعر وهو ابن احدى عشرة سنة .. (٤) وله مؤلفات عدّة في الشعر والنثر منها اللزوميات وسقط الزند والفصول والغايات ورسالة الغفران ورسالة الصاهل والشاحج والايك والغصون ..وهناك عدد كبير من تلك المؤلفات يمكن مراجعتها في كتاب معجم الادباء لياقوت الحموي وانباه الرواة للقفطي وغير ذلك من الكتب.

وقيل انه كان لايأكل لحم الحيوان مدة خمس واربعين سنة رأفة به وشفقة عليه حتى اتهمه قسم منهم بميله الى مذهب البراهمة الذي جاءت صفاته وآراؤه مطابقة له بعض الشيء .. (٥) وقد سأله رجل ذات يوم ((لم لم تأكل اللحم ؟ فقال:ارحم الحيوان قال فما تقول في السباع التي لا طعام لها الا لحوم الحيوان فان كان لذلك خالق فما انت بأرأف منه،وان كانت الطبائع المحدثة لذلك فما انت بأحذق منها ولا اتقن فسكت ..)) (٦) لذلك كان نباتيا فاكله العدس وحلاوته التين وفراشه لباد وحصير ولو كان يريد غير هذه الحياة لاقتدر على ذلك عن طريق التكسب بالشعر الا انه رفض لقناعة بذلك واعتاش على ثلاثين دينارا طوال كل عام يعطي نصفها لمن يخدمه ويرعاه ..(٧) وذكر انه رحل الى بغداد لتلقي العلم عام ٣٩٨ هـ ومكث فيها سنة وسبعة اشهر والتقى بعلمائها وشعرائها وتأثر وأثر فيهم،الا انه سرعان ما قفل راجعا الى بلدته المعرة لمرض امه ولما لاقاه من صد واهانة لشخصه في بعض المجالس التي كان يحضرها لاسيما في مجلس الشريف المرتضى في بغداد .. (٨) فيذكر ياقوت الحموي على سبيل المثال وهو ما اثر في نفسيته كثيرا انه لما ذهب الى بغداد ((قصد ابا الحسن علي بن عيسى الربعي ليقرأ عليه فلما دخل اليه قال علي بن عيسى ليصعد الاصطبل فخرج مغضبا ولم يعد اليه والاصطبل في لغة اهل الشام الاعمى ..)) (٩) لذلك قرر بعد عودته لزوم بيته حتى سمى نفسه رهين المحبسين وفي اخريات حياته مرض لثلاثة ايام وفارق الحياة في اليوم الرابع سنة ٤٤٩ هـ وقد اوصى ان يكتب على قبره : (١٠)

هذا جناه ابي عليّ وما جنيت على احد

قراءة نقدية في كتب طه حسين حول المعري

قبل الشروع في قراءة كتبه الثلاثة حول ابي العلاء المعري واستكناه خطابها النقدي نثير سؤالا ملحا من شطرين ومضمونه..ما هو سرّ افتتان طه حسين بابي العلاء ؟ ولماذا لم يكتف بكتاب واحد كما فعل مع غيره من الشعراء والشخصيات يحوي كل خواطره وافكاره التي تجول في رأسه .؟ الا انني وبعد اقتحامي حدود كتبه تلك والسير في دهاليزها اتضحت لي بعض الرؤى وراودتني جلّ الافكار وازداد الطلب عليّ بعرض الاسئلة حول كل ما يتعلق بموضوعي المطروق. لذا قررت تأجيلها الى ما بعد القراءة النقدية لكي تتضح للقارىء معالم وملامح مستبانة عن سرّ ذلك الاهتمام،وكيف كانت طريقة معالجته لموضوعه ؟، ومن ثم نزيد ونعمق ما تم فهمه باجوبة علّها تلقى حسن القبول والرضا وهي تقبع بين يدي القارىء..

وقد ذكر طه حسين على سبيل المثال في مقدمة كتابه (تجديد ذكرى ابي العلاء) ان ما كتبه عن المعري نال استحسان بعض الناس وسخط عليه بعضهم الآخر . وان من سخطوا على ما سطره وقدمه حمّلوه من النعوت ما لايطاق حتى خيل لبعض منهم انه قد يخرج من دائرة الاهتمام والشهرة. لذا نحن في هذه القراءة البسيطة لاندعي ان ما سنسطره الآن هو باكورة عمل جديد في ميدان النقد ، بل الجديد فيه هو اننا لا نبغي التحامل على المؤلف من باب توجيه النقد الى ما قدمه من طروحات وابرز الاخطاء الاستنتاجية التي توصل اليها الا من باب ابراز مكانة المعري عنده..اي اننا لانريد نقدا لخطاباته النقدية الا من ناحية ابراز قيمة المعري في مرآته وكيف كان ميله له وصده عنه وذلك من خلال الوقوف على بعض الركائز التي تخدم القراء من حيث كون المعري مثّل بالنسبة لطه حسين كذا وكذا ..وهو ما سنوضحه هنا.

وعليه سنقوم بتحليل الكتب عبر قراءة نقدية نرتضي لها الموضوعية والعلمية كما اسلفنا لبيان قيمة المعري وادبه في مرآة طه حسين ؟ وكيف عالج القضايا الحساسة ؟ وما هي ادلته وبراهينه ؟وما هو المنهج الذي سار عليه ؟ وما هي اهمية استنتاجاته ؟ وهل كانت علمية موضوعية ام ذوقية انطباعية ؟ اشياء واشياء سنتحاور بها مع طه حسين لنصل الى شاطىء الحقيقة التي نبتغيها ونريدها.
وعلى وفق ما سنقوم به من قراءة نقدية فاننا ارتأينا تقسيم عملنا على النحو الآتي :استنطاق محتويات كل كتاب لبيان مرتكزاته الرئيسة واستنتاجاته ومن ثم التعريج الى النهاية وذلك بتسطير بعض المشتركات العامة التي جمعتها .. وحتما سنبدأ ذلك باختيار قراءة الكتب حسب التسلسل الزمني التاريخي.

١-تجديد ذكرى ابي العلاء:

يمثل هذا الكتاب باكورة عمل طه حسين في ميدان المعري الواسع الشامل ، وقد ابصر النور عام ١٩١٩ ولقيمته ومكانته بين اوساط المثقفين والمتعلمين اعيد طبعه طبعة ثانية عام ١٩٢٢ لنفاد الطبعة الاولى كما يذكر هو في مقدمته ..وتضمن محتواه خمس مقالات ركز في الاولى منها على زمان المعري المضطرب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وكيف كانت الجوانب العقلية والخلقية والادبية في خضم تلك الفوضى المحتدمة التي اثرت في صنع نفسية الشخص المسلم آنذاك .وخصص المقالة الثانية للحديث عن قبيلته واسرته ورحلته واخفاقه وملكاته ودرسه وما شابه ذلك ، فيما جاءت المقالة الثالثة لتوضح لنا مكانته الادبية شعرا ونثرا من خلال مؤلفاته وشرح بعض اشعاره ونصوصه النثرية ، وتم تكريس المقالة الرابعة للحديث عن علمه والفنون التي اتقنها وكيف كانت ثقته بنفسه عالية وكيف كان ذوقه نافذا وبصيرا وان اهتمامه بآثاره كبيرا. اما المقالة الخامسة فقد درست فلسفته المتخبطة ومدى اضطرابه وماهي ابرز اعتراضاته وموافقاته للاديان والشرائع. وهلم جرا.

وبعد تتبع المقالات الخمس اتضحت امامنا بعض المسائل التي تتطلب منا حوارا مع طه حسين، وهو حوار قائم على الموضوعية البناءة لا التجريح وسلب الحقوق.
اول ما يطالعنا من المسائل الحساسة هي اخراج شخصية المعري المضطربة المترددة ولزومياته التي سجل عليها العديد من المآخذ من دائرة الاتهام ، بل وتبرئته ولزومياته .وذلك من خلال اسقاط ثقل الحياة السياسية وتلونها المشين على تكوين شخصية المعري ومن ثم التأثير في ادبه وسلوكه الاجتماعي . تاركا سهوا او تعمدا خصوصية حياته وهي خصوصية قد لانجدها عند غيره ممن عاصروه اوتقدموا عليه او تأخروا عنه ، كما ان التغييرات السياسية وان طرأت على المجتمع لاتفعل فعلتها بالزام تغيير نفسيات جميع اشخاص المجتمع بالطريقة والقوة التأثيرية نفسها.فهو اوضح على مدار الصفحات الـ ٦٣ الاولى عبر استطراده في بيان الاختلافات السياسية التي عصفت بمعرة النعمان وغيرها من المدن ان جسامة تلك الاحداث كان لها تأثير واضح في سلوك الشخص ، وهذا ما جعله يعمل لابي العلاء ثغرة تنقذه من اتهامات الالحاد والزندقة التي لحقت به . معللا بكون الاحداث اقوى من اي شيء وهي التي تجعلنا نلجأ الى الزهد والتعفف ومعارضة الامور جميعها . وذكر ذلك بقوله : ((فان هذه الحياة السياسية المملوءة بالفزع والهول وبالاختلاف والاضطراب وبالفساد والانتقاص وبالكيد والخديعة قد عملت من غير شكّ عملا غير قليل في تكوين الفلسفة العلائية . فلا بدّ من فهمها اذا حاولنا ان نفهم ابا العلاء، ونحن اذا فهمنا هذه الحياة السياسية السيئة وقرنّاها الى غيرها من الاسباب التي اشتركت في تكوين هذا النسيج الفلسفي التي تمثله اللزوميات لم يبق ما يحمل على لوم ابي العلاء او تأنيبه فان كل شيء حوله انما كان يزهّد العاقل في الحياة ويرغّبه عنها ويملأ سوء ظنّ بها)) (١١) .. وهذا على ما يبدو ناتج من تأثر طه حسين بمعطيات علم الاجتماع التي تحتم علينا قبول رفعة وقوة الاحداث وتأثيرها في الاشخاص بسلطة فاعلة لا مبدل لها ،وعلى ضرورة عدّ الادب احدى الظواهر الاجتماعية البارزة.

هذه الثغرة لاينبغي التسليم بها لان قبولها سيكون من جانب عام وليس من جانب خاص .اذ ليس كل الناس في مستوى واحد من المفهومية والعقلانية والتكوين الايديولوجي حسب الفروقات الفردية التي يؤكدها علماء علم النفس والاجتماع بدليل ان الكثير من ابناء المجتمع في ظل تلك الظروف -التي قال عنها انها تلزم الشخص الاهتداء بالايمان والزهد - قد تأقلموا معها وتمكنوا منها سواء بالنفاق او الحياد او ما شابه ذلك..وربما كان افتراضا ان يكون المعري احد هؤلاء، ولكن النسيج الاجتماعي ومباعثه النفسية والفكرية وحدّة الذكاء لديه طواه والقاه في زنزانة سجنه الخاص عبر تفكيره وآرائه..وفي ضوء هذه الثغرة التي اصطنعها للمعري برّأ لزومياته من التهم واكسبها صلاحية مقبولة حسب التأثيرات التي عصفت بابي العلاء وارغمته على السير في تلك الدروب دروب الزهد والتقوى .

وفي مجمل ما تقدم نقول : لاتفرض الاضطرابات السياسية سلطتها علينا بالكامل بحيث تغيير مسارنا نحو الايمان والزهد ، بل تعمل على خلخلة بعض مبادئنا وهو ما ينتج انقساما بطبيعة الحال . فقسم سيتأقلم ويكون من شخوص ذلك الاضطراب، ومنهم من يلتزم الحياد ومنهم من يلجأ الى التقوى وذلك بالاستناد الى التربية الاسرية والتنور الفكري لكل شخص .لهذا لايمكن تبرئته من افكاره القاتمة التي طرحها في لزومياته وفي مؤلفاته الاخرى .

كما ان عملية اطلاق الاحكام ينبغي بناؤها على اسس موضوعية وادلة منطقية راجحة لكي تكون مقنعة ، فالامر اذا ما اطلق على علاته دون الاستناد الى هذه الاسس والادلة يدخل في باب التأثرية . فطه حسين هنا اعطى حكما قاسيا بعض الشيء حول كون الشعر الفلسفي كاتجاه هو من صنيع ابي العلاء وحده معللا ذلك بتأليفه ديوانا خاصا بهذا الشأن وهو ديوان اللزوميات ،ومستبعدا كل خطوة خطاها الشعراء في قصائدهم وعدّها مبعثرة الا اذا جمعت بين دفتي ديوان فهو يقول : ((فمن الذي ينكر علينا ان نقول: انّ فنا جديدا من فنون الشعر قد حدث في ايام ابي العلاء ولم يعرفه الناس من قبل ؟ وهو الشعر الفلسفي الذي انشأه ابو العلاء نفسه فمن الذي يستطيع ان يدلّنا على ديوان انشىء لا لغرض الا لشرح الحقائق الفلسفية وحدها في العصور الاسلامية الاولى الى اواخر القرن الرابع ذلك رأي نراه وسنثبته عند الكلام على اللزوميات)) (١٢)

هنا بالطبع نلمس اشارة صريحة بكون اللزوميات ديوانا فلسفيا خالصا ،وعليه فاذا ما اردنا التشكيك في هذا الرأي فان شكنا سيأخذ منحيين الاول:لانشك بمسار ابي العلاء في الفلسفة الذي يختلف عن كل الذين سبقوه من حيث تشربه من الفلسفات المتعددة وبثها باسلوب اثبت من خلاله النظريات الفلسفية المختلفة ، الا اننا لانتفق ورأي طه حسين القائل بان من استلهم الفلسفات المختلفة وتفاعل معها ووضعها بين دفتي ديوان هو من يحسب له البدء بانشاء هذا اللون وقد اسماه هو فنا ، فالذي يطلق الشرارة الاولى للفن او اي شيء آخر هو في رأينا ورأي الكثيرين وان كان في مهده يحسب له هذا الفن، كما هو الحال على سبيل المثال عندما وضعوا بشار بن برد على رأس هرم المولدين المجددين في عصره . ومن جاء بعده ابدع في التوليد واغرق نفسه بالمزيد واطلق الجديد اسلوبا وفكرا وخيالا ، الا ان حق بشار بقي محفوظا ولم يسلب ..لذلك فان من سبق المعري الى هذا اللون ينبغي الاشارة اليه لا انكاره بسبب عدم جمعه لآرائه في كتاب او ديوان خاص .. فابن سينا كما يذكر طه حسين هو احد الفلاسفة الاسلاميين وله قصيدة طويلة تحمل ملامح فلسفية خالصة ولكنه يستبعدها معللا ذلك بوحدانيتها ولا توجد مثيلات لها قد جمعت في ديوان خاص له . على الرغم مما لديه من بعض المقطوعات تصب في الاطار ذاته .واورد ذلك بالقول: ((فان قال قائل ان ابن سينا قد نظم قصيدته في النفس فقال (هبطت اليك من المحل الارفع) قلنا : فان ابن سينا لم يضع ديوانا شعريا احاط فيه بفنون الفلسفة وتلك خاصة لم يشارك ابا العلاء فيها احد ممن قبله ولا بعده ..)) (١٣) .

فضلا عن ذلك فقد اقرّ النقاد بالقمة الفلسفية التي تمتع بها المتنبي من خلال شعره ، وهو سابق على ابي العلاء، بل استاذه في نظر الكثيرين، بل في نظر المعري . حتى ان ديوان سقط الزند الذي مثل مرحلة الشباب كان مسرحا لتقليد اسلوب المتنبي وتبني افكاره ، وهو ما لا ينكره طه حسين (١٤) ،فالاجدر اذن

حساب الفن الفلسفي للمتنبي او غيره ممن سبقوا المعري في هذا المضمار ،ولكنه باغلاقه صفحة التضارب في الرأي الذي تبناه عن طريق الاتكاء على عكازة الديوان المجموع والفلسفات المختلفة سد الطريق على من يريد الرد عليه كما ظن ،ولكن الوصول للحقيقة تبغي منا الحدو مسرعا لكشفها وتحتاج منا الاناة والتدبر .

اما شكنا الثاني فهو يتجه صوب اللزوميات:مجددا لانشك بالفلسفة المستضاءة في اللزوميات ، وكيف وصلت الى قمة القمم بفضل الاسلوب والفكر المرتوي الذي صقلها بشكلها هذا .اذ يرى محمد شفيق شيّا ((ان في شعره من المضمون الفلسفي ما يكفي لصياغة نظريات ومواقف فلسفية فيها كل ميزات التفلسف)) (١٥) ولكننا لايمكن الاهتداء الى قبول فكرة الكل التي جاء بها طه حسين اي عدّ اللزوميات ديوانا فلسفيا خالصا ، فهناك العديد من الآراء المنبثة فيها لاترتقي الى مصاف الفلسفة ومن الصعب زجها في ميدانها ، فليس من المعقول ان يكون رأيه بالنسل والمرأة وبعض ما في المجتمع من مفاسد ومظالم وما الى ذلك واقع تحت ظلال الفلسفة ، فكم من شاعر ادلى بدلوه بهذه المسائل وبطرق افضل بكثير مما جاء به المعري ولم ينل حظه من الانصاف ، بل لم نعد ما جاءوا به من صميم الفلسفة لا من قريب ولا من بعيد وعددنا كل ما تفوه به ابو العلاء في لزومياته وغيرها من آثاره بانه فلسفي صرف .وهذا ما اوقع بالفعل الكثير من النقاد بما فيهم طه حسين بتناقض مكشوف ، فهو هنا في كتابه هذا يعدّه كتابا فلسفيا ،والفلسفة كما نعرف تستلزم طرحا عقلانيا مرضيا ومستوفيا للمعنى كي ينفذ الى النفوس ويهديها الحقيقة ، ولايمكن قبول اي شعر ما لم يكن مؤثرا فينا . وهذا يعني ان الشعر غير الجيد لايكون فلسفيا مطلقا وهو ما ينطبق على اللزوميات كونها حملت بين طياتها اشعارا غير جيدة . وهو ما صرح به طه حسين في كتابه (مع ابي العلاء في سجنه) مما اوقعه في هوّة التناقض حيث قال :((فقد نسرف على انفسنا وعلى الفن الادبي ان ظننا ان شعر اللزوميات جيد كله من هذه الناحية الفنية الخالصة ، بل نسرف على انفسنا وعلى الفن الادبي ان ظننا ان كثرة هذا الشعر جيده ، وانما المحقق ان الجيد من شعر اللزوميات قليل يمكن ان يستخلص في مجلد يجمع الى الجمال الفني خلاصة الفلسفة العلائية كلها)) (١٦) فكيف اذن يتسنى لنا عدّه ديوانا فلسفيا وفيه من الشعر الرديء ما لايرقى الى التأثير فينا والتحليق في فضاء الفلسفة . وهذا بالتأكيد يزيد من السؤال لاختلاف الثقافات والامزجة والادراكات المعرفية والايديولجية .

وعلى مايبدو فان قراءة طه حسين لديواني المعري وهما سقط الزند واللزوميات فيها من الدقة المتناهية لاسيما في المجال التاريخي والفلسفي بحيث تلزمنا التأني بما نبه اليه ، على الرغم من الاخفاقات في بعض الجوانب الاخرى . اذ اورد لنا تنبيهات تحسب له وتعطيه السبق .. فيذكر ان ديواني المعري فيهما الكثير من الاحداث والمواقف التي لم ترد في كتب المؤرخين وهي تمثل دعوة لقراءتهما مرات ومرات للخروج باحداث جديدة وصحيحة قياسا بما اطلعنا عليه في كتب السير والتراجم والتاريخ.ومثال ذلك ما نقله عن قصة صالح بن مرداس ومحاصرته المعرة ، فالمؤرخون حسب رأيه لم يحددوا السبب في هذه المحاصرة الا ان اللزوميات اوضحت اللبس في السبب تمام الايضاح كما يرى هو ((وهذا أوان البرّ بما وعدنا به في المقالة الاولى من تحقيق قصة صالح ومحاصرته المعرّة فقد اختلف فيها المؤرخون اختلافا كثيرا ، ولم يستطيعوا ان يجزموا بمصدرها،ولا ان يتفقوا على نتيجتها ولا علّة لذلك الا انهم لم يدرسوا حياة ابي العلاء ولو انهم درسوا اللزوميات لاستطاعوا ان يستنبطوا الحادثة منها ، فان ابا العلاء قد ذكر سببها وبيّن نتيجتها وشفاعته فيها وذلك في ثلاث مقطوعات من اللزوميات تفرقت في باب الدال والراء واللام ، فاما سبب الحادثة فهو ان امرأة لم يسمّها احد من المؤرخين ولكن ابا العلاء سماها (جامع) اقبلت يوم الجمعة على الناس وهم في مسجدهم فشكت اليهم ان اصحاب الماخور تعرضوا لها وارادوها بمكروه فغضب لها الناس وهدموا الماخور وحرقوا فيه من خمر وافسدوا ما فيه من اداة لهو وطرب وقد رضى ابو العلاء عن هذا كلّ الرضا وحمده احسن حمد)) (١٧)

فقال في ذلك : (١٨)

اتت جامع يوم العروبة جامعا تقصّ على الشّهاد بالمصر امرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها لخلت سماء الله تمطر جمرها

وفي معرض حديثه عن ثروة المعري ركن الى مقولة صالح بن مرداس الذي قصده ليتشفع لقومه حيث قال له بعد قبول شفاعته (فقد وهبتها لك) ويقصد معرة النعمان . وهذه المقولة سجلها ناصري خسرو الفارسي في كتابه (سفر نامه) . ومن هنا انطلق طه حسين ليعالج القضية من باب آخر مخالف لما تواتر عليه المؤرخون ، فهو يرى ان لا مناص من كون المعري قد نال حظه من الغنى عن طريق الهدايا التي كانت تهدى اليه وما يقدمه له اخواله من معونات .وعدّ ذلك ضربا من التنعم بالغنى ولو كان قليلا ..ونحن اذ نعالج القضية ينبغي علينا تدبر هذا الرأي من وجهين الاول:ان ابا العلاء كما يذكر قسم من المؤرخين تزهد في كل شيء وتزهده كان في المأكل والملبس وما يتصل بالحياة العامة . فما قيمة الهدايا التي كانت تهدى اليه .؟ هل من المعقول ان يهدوا له عدسا اوتينا وهما طعامه المفضل .؟ وهل يعقل انهم كانوا يهدونه جلابيب خشنة كما كان يريد ؟ فالهدايا والعطايا التي كانت تأتيه يقسمها على طلابه ومريديه ولا ينال منها الا ما يتوافق مع زهده .فالمؤرخون لم يذكروا ان احدا اهداه فراشا ناعما او جلبابا من حرير فقبله وارتداه او جلس عليه .
والوجه الآخر هو كبر مقامه في مجتمعه وما توافد الوفود عليه والسير بمشورته الا من باب اهميته العقلية والادبية ولا حظ لما جاء به الرحالة الفارسي ناصري خسرو من امتلاكه لمعرة النعمان .. وقد رجح طه حسين تبني هذه المعلومة بالاستناد الى قصة صالح بن مرداس عندما ذهب اليه المعري شافعا لقومه فقال له (فقد وهبتها لك) اي المعرة .وهذا تعليل ضعيف لم يفطن اليه احد . كما ان تولي منصب ما او الارتقاء الى رتبة اعلى تستلزم اقرارا رسميا خطيا من الشخص المسؤول كأن يكون قائدا او اميرا او خليفة وهو ما لم نجده ايضا ، بل الذي وجده طه حسين هو قول صالح(فقد وهبتها لك) .. فضلا عن ذلك فهنا امر فرعي تجدر الاشارة اليه وهو ان المعري تزهد في كل شيء ولم يقبل من الحياة سوى ما يكفيه لدرء الخطر عن نفسه والاستمرار في الحياة ، فكيف اذن نصدق قبوله بتولي المعرة وان نوابه هم الذين يديرونها كما قال ناصري خسرو واستند اليه طه حسين ((ويحكمها اي المعرة رجل ضرير يعرف بابي العلاء عظيم الثروة يملك عددا ضخما من العبيد والخدم وكأن سكان المدينة كافة خدمه...وسمعت الناس يتحدثون بان بابه لايغلق وان نوابه يعملون في تدبير المدينة ولا يلجأون اليه الا في مهام الامور...)) (١٩)
كما انه يتخذ من شعره في اللزوميات ذريعة اخرى لمعرفته الغنى بدلالة قوله (٢٠)

خبرت البرايا والتصعلك والغنى وخفض الحشايا والوجيف مع السفر
فاطيب ارض الله ما قلّ اهله ولم ينأ فيه القوت عن يدك الصغر

وهذا وان صحّ فهو قليل ولايصح الاعتماد عليه لكثرة ما رفض وتبرّأ من الثروة في لزومياته بشواهد عدّة تغرق ديوانه ..فكيف لنا تصديق شاهد وتكذيب شواهد .
وعلى خلفية ما ورد ينبغي التروي والاناة في قبول او رفض نص تاريخي ما، كي لانقع في خطأ لايحمد عقباه ونصفق في صف لفه السكوت.على الرغم من وجود بعض النصوص القليلة بعباراتها الا انها كفيلة بفتح باب واسع مغلق لدهر خلا .
وعلى الرغم من الاشياء التي وقف عليه وعالجها بالاعتماد على اشعاره فانه افرد مقالته الثالثة لوصف ابداعه الادبي المتقن ولم يأت درسه لادبه الا من وجهة واحدة وهي وجهة الوصف العام القائم على التقاط ابرز وادق الركائز المكونة لهذا الادب برمته ، مستعينا بالتقسيمات والوقفات التي خدمته مسبقا في

معالجته قضايا المعري الشخصية. فقد وقف فقط على الاطر الهيكلية لكل ديوان شعري وكتاب نثري وبيّن جوانبها البارزة . دون الخوض في مجال الشرح والاستقصاء وهذا يتناسب تمام التناسب مع فصول كتابه التي القى فيها المعلومات القاء عاما ومتفحصا في الوقت ذاته بقالب تاريخي متواتر مرض ومنطقي..

الى جانب ذلك فان اصدار الاحكام كما اشرنا سابقا يجب اسنادها بادلة منطقية لا ان تأخذ طريقها سدى بين الاسطر وتسجل ونرضخ لها ونمشي بمشورتها ،وسواء اكان ذلك مقصودا ام سهوا فكلاهما سيان لانهما يعطيان انطباعا لا محالة ، وفي وفق ما تقدم رصدنا خطأ ربما يكون قد وقع في هوّته طه حسين سهوا او دون دراية . فهو عندما تحدث عن ديوان الدرعيات ص ١٨١ ارجع سبب تأليفه الى حفظ المعري اوصاف الدروع واراد بعدها بيان مقدرته الفنية فنظم اشعاره فيه دون ان تكون له اية اوليات بالمشاركة في الحرب كونه ضريرا. ونحن اذ نؤيد جازمين هذا الشيء لاننا لم نعرف عنه سوى ما ورد . ولكن اذا ما تقدمنا نحو الصفحة (١٩٠) من صفحات كتابه نجد شيئا يتناقض مع ما قدمه .فذهاب بصره كما يشير اصبح عائقا بينه وبين ضروب الحرب والصيد ، ولهذا نفى ان يكون قد نظم في هذا المجال اشعارا. لذا قال ((وكان ذهاب بصره حائلا بينه وبين الصيد والحرب ، فلم يكن من المعقول ان ينظم في هذه الفنون قصائد خاصة)) (٢١) ونحن نتفق معه كما اشرنا بعدم خوضه غمار الحروب والصيد ولكننا لانتفق معه بكونه لم ينظم مطلقا في ميدان الحرب ، فالدرع اداة للدفاع عن النفس تستخدم في المعركة ولايمكن لاي محارب الاستغناء عنها وقد نظم فيها المعري ديوانا كاملا وان كان صغيرا قياسا بسقط الزند واللزوميات .فكيف اذن يقول انه لم ينظم فيها قصائد..؟

وفي حديثه عن الطور الثالث من شعره يصدر حكما غريبا بقوله ان الخيال قليل الحظ في شعر هذا الطور وأرجأ ذلك الى كون المعري لم يعش حياته كشاعر بل كفيلسوف ((فمن الحق علينا ان نبين ان عمل الخيال قليل في هذا الطور من اطوار ابي العلاء وذلك واضح اذا لاحظنا انه لم يكن يحيا حياة شاعر بل حياة فيلسوف ، فليس الخيال هو الذي يمدّ شاعريته في هذا الطور وانما هي حياة كانت في نفسها شاعرة)) (٢٢) وتكمن معارضتنا لهذا الحكم من جانبين الاول هو ان طه حسين نفسه ذكر ان شعر هذا الطور ابتعد عن المبالغة واصبح اكثر رصانة ومتانة من حيث الاسلوب والمعاني ((يكاد التكلف لايوجد في شعر ابي العلاء لهذا الطور الا ان يضطر الى نظم شيء ليس مما يتناوله الشعر ، ولكن شعره يمثل شخصه تمثيلا صحيحا بحيث انك اذا درست حياته ثم عرض لك من شعره ما لا تعلم انه له لم تشك في ان هذا الشعر يمثل نفس ابي العلاء)) (٢٣) وما دامت المعاني متطابقة مع الاسلوب في نقل الصور فلابد من ان يكون للخيال دور في انضاج ذلك كله ،لاسيما ان شعر هذا الطور كما ذكر هو يمثل ما قاله المعري في عزلته، وهي مرحلة قال عنها في اكثر من مرة انضج مراحل المعري العمرية، حيث اتضحت له معالم الاشياء وايقن منها ما ايقن وشك في الباقي منها ورسم له طريقا خاصا لتناول واستيعاب كل ذلك بدراية وتدبر ، لا كما كان عليه الحال في شعر الطورين (الاول مرحلة الشباب والآخر مرحلة العودة من بغداد).وعليه فان هذا النضوج لايمكن ان يكون قد اخفق في تصوير الاشياء وتقديم الصور الخيالية كما في السابق. علما ان مرحلة اللزوميات حسب المدة الزمنية لم تكن بعيدة عن شعر تلك المرحلة فكيف نفهم اذن اخفاقه في تكريس الخيال اداة مهمة هنا وكذلك قدرته الفائقة على تخطي حدود المألوف والعادة في اللزوميات ؟ . اذ ان وصول الشاعر الى علو التأنق الاسلوبي والطرح الفكري في اللزوميات لابد ان يكون قد اتكأ على ارض صلبة من الشعر وهو ما كان فعلا في القصائد الاخيرة من ديوان سقط الزند.

اما الجانب الآخر الذي نعارضه نقديا لاشخصيا فهو ان ابا العلاء عاش طوال حياته يدرس اللغة والادب وما يتصل بهما ،بل تفنن اشد التفنن بهما، اما درسه للفلسفة فكان زيادة في العلم وسعة في الثقافة وان اثر ذلك في فكره وآرائه كما هو الحال في لزومياته وهذا يتضح في نص طه حسين ((لانعرف ان ابا العلاء درس شيئا غير اللغة وادابها فهو لم يكن استاذ فلسفة ولا دين وانما كان استاذ لغة وادب)) (

٢٤) اذن كيف يتسنى لطه حسين القول ان المعري كان يحيى حياة فيلسوف ولاحياة شاعر، ولهذا لم يحظ الخيال بدور بارز في شعره الذي هو في الطور الثالث .
ونحن نقول ان الفيلسوف لا يبتعد عن جادة الخيال فقط ،بل يبتعد عن جادة العاطفة ايضا وهو ما لم يذكره هنا ، ثم ان الكثير من المؤرخين اجمعوا على عدم اشتمال ديوان سقط الزند على الفلسفة الا في النزر اليسير لان الفكر الفلسفي لم يختمر في ذهن المعري بالشكل الذي ظهر عليه شعره في اللزوميات .. فاين تأثير الفلسفة وحياته في شعر هذا الطور اذن ، كما انه في اكثر من مرة يقول ويردد عبارات مثل –شعره الفلسفي في اللزوميات – والفلسفة في اللزوميات – ولم يذكر قط هذا الكلام على ديوان سقط الزند.
وقد اشار طه حسين في بعض صفحات كتابه الى فلسفة المعري الاسلامية وصرّح بكونه احد الفلاسفة الاسلاميين شأنه شأن معاصره ابن سينا ((ولم نقتصر على هذين الرجلين لانهما فذّان في الفلسفة الاسلامية لذلك العصر...)) (٢٥) ومن دون شك فهذا يعد ترجيحا مسبقا يفضي بنا الى تبني الرأي وتجاوزه كي لانحاول المدارسة والتمحيص ، الا اننا ندرك كغيرنا اذا ما قرأ هذا الكلام بوجود تعاطف واضح تجاه المعري لاجل ابعاد التهم عنه من جانبين الاول ما التصق به من الالحاد والزندقة والآخر انه لم يكن فيلسوفا بل اديبا وحسب .
وعلى خلفية ما قرأناه في مصادر القدامى والمحدثين فاننا لانتفق معه على فلسفة ابي العلاء الاسلامية استنادا الى ما حملته اشعاره في اللزوميات وما ورد في مؤلفاته الاخرى من تهكم وهجوم عنيف على الاديان وانكار النبوات وتسطير رؤاه في الامور الغيبية ، رغم ان بعض اشعاره اخضعت لتأويلات جاءت بنتائج عكسية لا يمكن حسابها عليه ..فالصحيح او ما نراه صحيحا هو التشريع باسلاميته كشخص مسلم وما آلت اليه بعض افكاره الموافقة لاسلامه . ولا يمكن التشريع بخلاصة افكاره الاسلامية بسبب ما تخللها من فكر مضطرب افسد عليه ايمانه في بعض الاحيان .وذلك نابع من تبنيه فلسفات وقراءته لديانات مختلفة مما اثر في نتاجه والصقت به خاصية الاضطراب التي لم يجرؤ احد على نكرانها الا بعض المحابين له ..ولكننا مهما حصل نتفق مع طه حسين من ان المعري فيلسوف من طراز خاص استطاع استيعاب كل المتناقضات والفلسفات المختلفة في عصره وعمل بها في ميدان حياته الشخصية ، بعد الامتزاج والتفاعل معها .وهذا ما اتضح لنا عبر نتاجه الابداعي ،وهو ما يتوافق مع قول محمد شفيق شيّا حول التداخل والامتزاج بين العمل الابداعي والفلسفة حيث يقول: ((العمل الفني او الادبي او الفلسفي هو ناتج شخصي اجتماعي وانساني، وهو نتاج شخصية واحدة وحياة سيكولوجية واحدة قد تتنوع لكنها واحدة ، بل قل هو التنوع الذي يكسب هذه الوحدة غناها وابداعها)) (٢٦) .
ولم يكتف طه حسين بهذا الرأي ، بل يدعمه برأي يرغمنا على التعاطي مع شعر اللزوميات على انه شعر فلسفي خالص وعلى مدار ديوانه كله ..وذكر ذلك في مواضع عدّة من كتابه فهو في حديثه عن حزنه وهو يفارق بغداد واهلها يقول : ((بل نطق به نثره ونظمه وظهر في شعره الفلسفي فقال في اللزوميات ..)) (٢٧).
ويقول ايضا ((اذا فهمنا من لفظ الفلسفة هذا النحو الذي اشتملت عليه اللزوميات ولم نقصره على الفسلفة العلمية لم يكن بدّ من الاعتراف بان ابا العلاء قد درّس لطلابه الفلسفة ايضا لانه كان يملي عليهم شعره ونثره ويفسّر لهم منه ما احتاج الى التفسير)) (٢٨)
وعود على اسلاميته فقد اشار طه حسين في اكثر من موضع في كتابه الى اتزان شخصية المعري وتزهدها وتقواها ، ولم يعرف له طريق سوى الايمان والفضيلة .
ونحن اذ نقول ونرد ان الزهد لايبيح لصاحبه السخرية من المجتمع والناس بهذه الطريقة الجريئة ولايحق له الخوض في فلسفات الغير، لاسيما تلك التي تنافي الاسلام وتتصادم معه وهذا ما وجدناه وما وجده الكثير من النقاد والباحثين في لزومياته..كما ان الايمان والتقوى يجبران صاحبه بالتزام الشرائع كلها

وعدم الحياد عنها والتصديق بعلماء الامة، لاسيما وان القرآن الكريم هو الكتاب المحفوظ والمنزه من التحريف والاخطاء والتلاعب ولايمكن لاي احد الشك بذلك .
كما ان دفاع طه حسين عن المعري من باب تحزبه بالعقل وحده ونبذ كل ما دون ذلك هو امر يحتاج منا التروي ، فطه حسين يبين لنا ان طريقة المعري في معالجة القضايا ليست سيئة وهي ليست ضد الدين بشيء يذكر، وهي طريقة التزام العقل وحده هاديا لاغير ، وهذا يعني ان اشعاره في اللزوميات والمحسوبة على كفره والحاده قد جعل لها مخرجا عقليا لايمكن حسابها على الرجل ، وردّ ذلك على ان التزام المعري العقل وحده ارغمه على عدم قبول ما جاءت به الشرائع من لوائح فقهية ومسائل خلافية وكذلك عدم قبول الادلة والبراهين المتواترة عبر الروايات وهو امر ليس بعيب ..وقد استشهد له بقوله(٢٩)

دين وكفر وانباء تقال وقرآ ن ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل اباطيل يدان بها فهل تفرّد يوما بالهدى جيل

كما ان انكاره لوجود الجن والملائكة يسجل عليه اشارات من المآخذ لكون المؤمن التقي لايسمح لنفسه انكار وجودهما بسبب تصريح القرآن الكريم بذلك في مواضع عدّة وهذا ما لاشك فيه اطلاقا.
وفي معرض حديثه عن فلسفة المعري عبر تحليل مستفيض لابيات ومقطوعات من اللزوميات يدافع عن كل ما جاء في شعره من آراء متناقضة ورؤى متصلبة منافية للشريعة الاسلامية ويغور في اوصافه العميقة حتى يستدرج القارىء الى متاهة تلزمه في النهاية تبني رأيه في هذا البيت او ذاك وحسب مايمليه هو ويرتأيه ، واثبت رغم وضوح معنى الابيات والمقطوعات انه اسلامي النزعة روحا وجسدا ولاصحة لتفسيرات المتقدمين من انها تدل على كذا وكذا من الالحاد والكفر..ولك عزيزي القارىء ان تطّلع على المقالة الخامسة الخاصة بفلسفته لتدرك مدى التعاطف الكبير الذي ابعده عن الشبهات...
ومن جهة الاخطاء وجدنا له بعض السقطات من خلال تحليله بعض الابيات والمقطوعات من حيث استنتاج المعنى بالاستناد الى ظاهر الكلام في كثير من الاحيان..فهو يستدل على سبيل المثال في بعض الابيات على ميل المعري الى رأي مذهب البراهمة المادي الذي يؤمن اصحابه بان الروح نار لايطفأها الا الموت وبالطبع هذا فيه شيء من التحرز ..ففي تعليقه على بيتي المعري الذي يقول فيهما : (٣٠)

روح اذا اتصلت بشخص لم يزل هو وهي في مرض العناء المكمد
ان كنت من ريح فيا ريح اسكني او كنت من نار فيا نار اخمدي

يذكر ميل المعري الى رأي الماديين في ان منبع الروح قد تكون من الهواء او النار ..ونحن اذ نقول: هذان البيتان ربما اطلقهما الشاعر على سجيته دون التفكير بفلسفته التي قد يريدها فالعبارات عفوية لاتدل على تأويل آخر فهي مجرد الفاظ شعرية واضحة ولا اثر للفلسفة البرهمية فيها.وهو كلام ناتج عن تحصيل حاصل وليس من فلسفة محددة .لذا يحتاج الامر في شرح ابياته تدبرا واعيا وموضوعيا قبل الخوض في التحليل والشروع باصدار الاحكام .
...بقي لنا الاطلالة على نافذة اخرى من نوافذ الكتاب وهي الوقوف بشمولية مقتضبة على الصيغة العامة التي اكسته وذلك من حيث تسجيل بعض الضربات المهمة التي كان ينبغي لها ان تكون او لاتكون في الوقت ذاته حسب الحاجة اوالاقتضاء ، وهذا بالطبع يدخل في باب المنهج البحثي، اما ما كان على شاكلة الاسلوب او اختيار منهج علمي معين فآثرنا ذكره في نهاية الكتب الثلاثة لان الصيغة نفسها تكررت ولانسمح لانفسنا الوقوع في هوّة التكرار ..ويمكن بيان ذلك حسب النقاط الاتية :
١-عنوان الكتاب يتطابق مع محتواه فالمعري تسيّد المكانين وتربع دون منازع الا ان ما نازعه هنا هو اسلوب الاستطراد في السلسلة التاريخية لكل عنوان او موقف اراد المؤلف التحدث عنه .فقد تجد نصف

او اكثر من نصف الكتاب قد وقع تحت اسر الاستطراد التاريخي حتى يخيل اليك انك تقرأ كتابا تاريخيا محضا وما ذكر المعري فيه الا على سبيل دعم الحقيقة التاريخية او وزنه في تفعيل بعض الاحداث .فالمؤلف يغرق ويجهد نفسه بالتتبع التاريخي لموضوع ما ثم يعرّج لاحقا لبيان اثره في شخص المعري وادبه..وهذا مايزيد من الايجابية التي تحسب له، الا انها تلهي القارىء عن فحوى الاهمية التي ينتظر قدومها وهي معرفة اي شيء عن ابي العلاء ، اي انه اراد ترسيخ دعائم منهجه التاريخي المستند الى العلمية والتجريبية حسب ما تقتضية الفلسفة الوضعية اكثر من تركيزه على قراءة المعري وادبه.

٢-اهمية الثراء الذي اصطبغ به الكتاب ذات مستوى راق بفضل المعلومات القيّمة التي اكتنزها والتشظي في المام كل ما له علاقة بالمعري بمختلف الاصعدة والاتجاهات ، ولانشك مطلقا بقيمة ما ذكره، الا ان القوانين المنهجية البحثية تفرض علينا ضريبة الالتزام ببرنامجها وشروطها وقد افتقد كتابه هنا اكثر واهم تلك القوانين قيمة وهو عدم الاشارة الى المصادر والمراجع التي استل منها دقائق معلوماته بحيث ترك كتابه يعوم في الانشائيات ،وهذا ما يجعل الركون اليه امرا فيه من التوجس والحذر ..ولو اننا لم نكن قد قرأنا قبل كتابه هذا عن المعري شيئا في المصادر القديمة والحديثة لما استطعنا ادراك حقيقة ما عرضناه واستنتجناه ، فقيمة كتابه لاغبار عليها ،ولكن القارىء يريد الاكتمال للشيء لكي يتفاعل معه ويستلهم منه ويمنّي به نفسه ..

٣-اخضع كتابه لتقسيمات جاءت مجهدة للقارىء لما يتطلبه الامر من جمع شتات المواقف وتكوين رؤية مجموعة ونتيجة مكتملة.ولكنها في كثير من الاحيان اتت ثمارها لحصرها المعلومة في زواية واحدة توفر مسلسل العناء الذي يقع فيه القارىء ..فالتقسيمات وان نفذت الى تصوير صغائر الموضوعات الا انها كبيرة في جوهرها وذات اهمية بالغة .

٤-تقاربت عدد صفحات مقالاته الاربع عدا المقال الرابع الذي خصصه لعلم ابي العلاء .اذ جاء المقال في سبع صفحات بينما تراوح عدد صفحات المقالة الواحدة للمقالات الاربع الاخرى ما بين السبعين والثمانين صفحة ،فضلا عن ذلك فالمقال يفترض ضمّه ضمن المقالة الثانية التي اختصت بذكر اسرته وموضوع درسه ورحلته لما يتوافق مضمونها مع تلك المضامين.

٥-نهاية الاعمال تتطلب الخلاصات والخلاصة (الخاتمة) هنا لم تنل حظها من الظهور وهو مايسجل عليه عثرة منهجية كان من الممكن تجاوزها ،واذا ما اراد الدفاع بالقول بان الاستنتاجات طفت على السطح اولا باول ، فان المناهضة لقوله هذا موجودة وحاضرة وهي كون الخاتمة تمثل الرؤية الشمولية لما عرضه واستنتجه من ناحية، وليس كل قارىء يستطيع قراءة الكتاب كله ،بل منهم من يكتفي بالخلاصة حصرا من ناحية ثانية ..ولنا ولك القياس بعدها على ما كان يجب او لايجب وجوده في هذا الكتاب.

٦-في تقديمه لمفردات مقالاته الخمس حول كل ما يتعلق بابي العلاء نجده يستعين بالادلة والشواهد من اشعاره بنسبة تقارب الـ ٩٠ % والنسبة المتبقية هي من نصيب نثره .وهذه دلالة تبيّن لنا ان قيمة اشعاره تفوق قيمة نثره اولا وتدل على شخصه وسلوكه وكيانه دلالة لا لبس فيه ثانيا ..لذا فمن يدرس شعره على سبيل المثال يستطيع الوصول الى كل ما تم تسجيله من جوانب حياته المتشعبة ، وقد استند الى اشعار اللزوميات بشكل كبير قياسا الى ديوانه الآخر سقط الزند .

٢- مع ابي العلاء في سجنه

يذكر طه حسين انه لم يقدم بين يدي قارئه كتابا منهجيا علميا ،بل ما يريده هو تقديم خواطره التي تجول في فكره،فجعل كتابه حوارا هادئا مع ابي العلاء يأخذ منه ويتفاعل معه الى حد الاندماج سويا ..وسطّر ما تمنى له الخروج الى النور خلال عامين .اذ سجل خواطره التي كتبها عام ١٩٣٨ وهو في باريس بحوالي مئة وخمسين صفحة فيما جاءت خواطره التي كتبها عام ١٩٣٩ في القاهرة باحدى وثمانين صفحة ..ولم تكن خواطره ضربا من الخيال الجامح، بل استقراء ودراسة لمواقف ابي العلاء

وموضوعاته التي عالجها في اللزوميات تحديدا.مع اشارة سريعة لمحتوى كتابه الفصول والغايات .وهذه الخواطر لاتمنع من دخولها في حيز الاهمية بوصفها شرحا سرديا متعمقا للزوميات وفهما واعيا رغم ما حصل من اسقاطات لشخصية المعري ومؤهلاته الذهنية التي دفعته لانشاء اللون الفلسفي الذي يراه طه حسين في اللزوميات..

وبعد مقاربتنا لفهم المعري بنسبة لابأس بها وكل ما احاط به ومدى تأثيره وتأثره عبر قراءتنا لبعض المصادر القديمة والمراجع الحديثة بما فيها كتاب (تجديد ذكرى ابي العلاء) استوعبنا ثراء ما جاء هنا ولمسنا ما لمسناه من اشارات تحتم علينا نشرها ..

اول ما لمسناه وهو على ما يبدو اقرب الى الصواب ان كتابه هذا صدى لكتابه الاول (تجديد ذكرى ابي العلاء) لانه يعرض فيه بشكل استطرادي انشائي كل ما الم بابي العلاء من مصاعب ومتاعب الدنيا ومدى انشغاله بفلسفة الحياة ،وهو بمثابة عرض تحليلي لكتابه الاول ، فهو يمثل دفاعا صريحا عن ابي العلاء وعلى مدار الكتاب كله، لا كما لاحظناه في كتابه الاول الذي اختفت وظهرت فيه معالم الدفاع هنا وهناك..ودفاعه عنه في الكتابين مستند الى ما في اشعاره من طروحات وآراء وبالتحديد في اللزوميات ..

كما ذكر طه حسين رضوخ المعري في اسلوبه للالغاز واخفاء المعنى فقد ((الغز وغلا في الالغاز واصطنع الاستعارة والمجاز، ودار حول كثير من المعاني دورانا ولم يرد ان يتعمقها في شعره او نثره مخافة ان يظهر الناس على رأيه وان يعرفوا من امره ما كان يجب ان يجهلوه ويطلعوا من سره على ما كان يؤثر ان يظل عليهم مستغلقا ودونهم مكتوما))(٣١) .ولنا في هذا القول رأي وهو:اذا كان المعري متزهدا ومؤمنا ورعا فعلا فلماذا اتخذ من التقية جدارا يحجب عنه الشبهات والاذى من الناس ؟ ولماذا الغز كثيرا في شعره حتى لايعرف الناس كنهه ؟ اليس في اسلوبه هذا وطريقته في العرض شبهة تستوجب الوقوف عليها ..ان المؤمن لايلغز وانما يفصح عما يريد قوله دون خوف او وجل، ولكن افكاره التي طرحها في اغلبها منافية للتكاليف الشرعية والعادات الاجتماعية ولهذا سلك الطريق الملتوي، وهذا بالطبع ما يدعو النقاد والباحثين الى الشك به وتدبر كل ما جاء في اشعاره ..كما ان تأثر طه حسين في لزومياته واضح بشكل كبير يفوق حبه لديوان سقط الزند والدرعيات ،وربما يعود ذلك الى جلّ الفكر ورقي الرأي الذي اشتملت عليه الاشعار في اللزوميات والتي كانت حظ اشعاره في سقط الزند اقل حظوة واقل خطورة ،فهو يؤسس فكرة الكتابة عن المعري على شكل مساءلة في كتابه هذا بعد دراسة اللزوميات والافتتان بما حملته من حمل فكري ثقيل، حتى انه انطلق في فكره من بيت المعري الذي يقول فيه : (٣٢)

لاتظلموا الموتى وان طال المدى اني اخاف عليكم ان تلتقوا

الى مديات واسعة في التحليل.بحيث استغرق في تحليله على شكل اسئلة اخذت من الكتاب ثلاث صفحات ،وهذا دليل على اعجابه بالمعري والسير على هديه ..

وعلى الرغم من ان علّة المعري هي واحدة منذ صغره حتى مماته وظهر ذلك جليا في ادبه بصورة عامة فان طه حسين يرى في اشعار اللزوميات قمة ابداعاته. فهو ينكفيء على دراستها وبيان جوانبها الجمالية من حيث براعة اللفظ والتزام ما لايلزم من القافية ذات الحرفين او الثلاثة احرف وقدرته على توظيف الجناس بادق توظيف وتركيب المعاني بصورة وهيئات جديدة مع اجهاد نفسه على تكرار هذا المعنى او ذاك بغيره من الالفاظ..وقد حاول تحليل بعض الابيات من لزومياته لبيان قدرة المعري وتمكنه من جادة الموائمة بين اللفظ والمعنى والقافية والاسلوب ،وكيف انه تفرد بذلك تفردا متمكنا جعل من شعره قالبا مستساغا ومؤثرا في النفوس ،وعلى سبيل المثال حلل الابيات الاربعة التي يقول فيها المعري (33)

يدل على فضل الممات وكونه اراحة جسم انّ مسلكه صعب
الم تر انّ المجد تلقاك دونه شدائد من امثالها وعجب الرّعب
اذا افترقت اجزاؤنا حطّ ثقلنا ونحمل عبئا حين يلتئم الشعب
وامس ثوى راعيك وهو مودع ولو كان حيّا قام في يده قعب

وافرد لها صفحات عدّة لبيان مواقع القوة فيها .واشار الى ان القافية هنا وفي كثير من شعره لم تلزمه اختيار الابيات بالفاظها وانما البيت هو الذي اختار القافية.اي المعنى عبر اللفظ هو الذي استلزم هذه القافية او تلك (٣٤) .وربما في هذا الرأي دحض لهيكلة اللزوميات القائمة على التصنع في اختيار لزوم ما لايلزم من خلال الزام المعري نفسه بالانقياد وراء القوافي لتحقيق النهاية الصوتية مع حساب شدة الملائمة مع المعنى المطروق في بعض الاحيان .وهو ما اعترف به في مواضع عدّة من الكتاب.
من جهة اخرى تبدو لنا وللقارىء ان ملاحظات طه حسين في بعض الاحيان ذات جدوى مبهرة وفي احايين اخرى تحمل رؤى فكرية تستلزم منا التروي والتأني في التعامل معها والتسليم بها .ومن هذه الرؤى هو ما يتعلق بديوان اللزوميات كله من حيث بيان الاندفاعات الرئيسة التي غلبت على ابي العلاء وارغمته على صياغته تلك .وهذه الاندفاعات هي بسبب سجنه الطويل في منزله،اذ يستنتج طه حسين ان المعري لايقرأ ولايكتب بعد ان يذهب طلبته وليست له زوجة او ابناء لكي يداعبهم وليس له من ميسور العيش ما يمكن ان يتلهى به او يلعب ما شاء..مما افضى له ذلك باستنتاج يقول ان وقته في الليل يساوي وقته في النهار وعلى مدار السنين الخمسين الطوال قد استغله بشيء يستطيع منه مبلغا جيدا وهو التلاعب باللغة وتوظيف افكاره فيها بحيطة وحذر والتزام التقية غطاء له.
فهو يرى تمكن المعري من اللغة وقدرته على حفظ ما تم حفظه من النوادر والاشتقاقات ارغمته على التسلي بذلك ونتج عن ذلك اللعب والتسلية هذا الديوان الذي بلغ من الشهرة شاوا كبيرا بين اوساط محبيه ومعاديه،وفرط التسلية بائنة تقاسيمها من خلال الزام نفسه بايراد القافية على حرفين او ثلاثة او اكثر مع تنوع الحركات وحسب الحروف الهجائية كلها ،وهذا ما جعل ديوانه ضخما بهذا الحجم،ولو لم يتكلف ولم يلزم نفسه بالتسلية واللهو لكان قد اكتفى بمجلد واحد عرض فيه جلّ ما يريد افرازه من آراء وافكار .(٣٥) والتسلية ليست مقترنة بالقافية فحسب،بل باستخدام النوادر اللغوية والمعنوية والجناسات المتعددة الاضرب والصياغات التركيبية والغريب ..الخ . وفي مجمل هذا التكلف اراد المعري بيان قدرته للقارىء رغم كونه لايهتم بما سيقوله او يستنتجه عليه،ويختم طه حسين رأيه بان المعري كان يتخير الفاظه ويبدلها للتلاؤم مع ما يريد طرحه او لتأتي متناسبة مع قوافيه .
هذه الفكرة التي طرحها طه حسين صحيحة لاغبار عليها ولكن ليس في مجملها ،بل في معظمها .ولبيان وجه ردنا عليها فاننا سنعالج الموضوع من زاويتين الاولى :هي ان طه حسين حجّم قدرة المعري الشعرية والخيالية واطلق العنان لالفاظه واسلوبه لكي يسيطران ويظهران ، وهذا التحجيم يأتي من حيث وضعه ضمن قائمة شعراء الصنعة الذين يتلاعبون بالفاظهم ويقدمون ويؤخرون فيها حتى تخرج القصيدة الى النور كما يريدونها –وان كان لم يطلق تسمية شاعر الصنعة .الا ان قوله بان المعري وقع تحت وطأة الالفاظ وراح ينثر منها ما ينثر ويبدل ويقفي قصائده بحروف المعجم جميعها، دلالة واضحة على اهتمامه بالتسلية اللفظية والمعنوية على حساب خيالاته وشعريته المتشظية المعروفة ..لذا فهو تحجيم لايصح التهاون فيه..ولم نألف المعري حسب ما قرأنا عنه واشار اليه النقاد والمؤرخون الا شخصا بارعا متمكنا من ناصية الشعرية.وقد وقع هو نفسه بتناقض عندما قال وهو يحلل ابياته (٣٦)

يدل على فضل الممات وكونه اراحة جسم انّ مسلكه صعب
الم تر انّ المجد تلقاك دونه شدائد من امثالها وجب الرّعب

وغيرها من الابيات : تأتي له الالفاظ والمعاني انقيادا وما القوافي الا تابع يسير خلف ذلك الانقياد ... وهذا ما يضعه في مصاف شعراء الطبع الذين يقولون الشعر على طبعهم وسجيتهم ولا يقدمون ولا يؤخرون فيه.اي كما خرج الى النور اول مرّة *..

اما الزاوية الثانية فانها تتمثل بكون التسلية تتصادم مع الجد والعلم وهذا ما قاله طه حسين بوصفه ديوان اللزوميات ديوانا انبثق نتيجة الفراغ وليس العمل .واذا كان الديوان كذلك اي الف للتسلية فلا يصح اذن حسابه ضمن دائرة الكتب الفلسفية اذ قال: ((ولولا ان ابا العلاء لم يكن يقصد الى الفلسفة وحدها وانما كان يقصد الى البراعة اللفظية والاستعانة على الوقت والتسلي عن الحياة وآلامها،لقد كان يستطيع ان يقول للناس ما اراد ان يقول وان يصوّر لهم ما اراد ان يصوّر من آرائه في الالهيات والنبوات والحياة الاجتماعية في يسر اللفظ واقله واسرعه مدخلا الى النفوس.ولكنه لم يرد شيئا من هذا، وانما اراد ان ينظم شعرا على حروف المعجم كلها مضمومة ومفتوحة ومكسورة وساكنة وان يلتزم مع ذلك حرفا ثانيا او حرفين آخرين .ولابد له من ان يستوفي هذا الشرط مهما يكلفه ذلك من الجهد ومهما يحمله ذلك من العناء لانه قد جعل ذلك غاية لنفسه وفنه واخذ نفسه بالوصول الى هذه الغاية)) (٣٧)

وعليه فاذا ما اراد المعري بديوانه التلسية وبيان القدرة على التوظيفات اللغوية والصياغات التركيبية فكيف يتسنى لنا قبول افكاره التي تضمنتها اشعاره .اذ هو لم يصرف باله نحو الافصاح عن فلسفته والاهتمام بها، وانما دار همّه بالتأنق الجمالي النصي من ناحية اللغة .كما ان الدخول في معترك النظم والفن اللغوي وتقليب اوجهه بالدرجة التي لمسناه في اللزوميات يؤدي الى ضياع اغلب الافكار وتشتتها ومن ثم لايكتب لها الحياة..وهذا استنتاج مردود على طه حسين ولربما قد وقع به عن دراية او سهو وكلاهما لايشفع لصاحبه وقوعه بهذه الزلّة .

الى جانب ذلك توجد هناك زلّة اخرى ترتبط باللزوميات ايضا وهي ان المعري كما يقول طه حسين لم يؤلف اللزوميات للمجتمع بشكل كبير ،بل لنفسه وعليه فهو لايهتم بما ستؤول اليه افكار ابناء المجتمع من عداوة او محبة. فهو يقول: ((ولكن يجب ان نذكر ان ابا العلاء لم يفكر في السامع وفي القارىء وحدهما حين انشأ ما انشأ من اللزوميات ،وانما فكر في نفسه معهما ،بل هو فكر في نفسه قبل ان يفكر فيهما.اراد ان يعبر عما لم يجد بدّا من التعبير عنه،ويصور ما لم يجد بدّا من تصويره ،واراد بنوع خاص ان يسلي نفسه ويلهيها كما قدمت)) (٣٨) وهو الشيء نفسه يقوله في كتابه صوت ابي العلاء : ((ان ابا العلاء لم ينشىء اللزوميات لعامة المثقفين بل لست ادري لعله ان يكون قد انشأها لنفسه ،وللذين يرقون الى طبقته من اصحاب العلم الكثير والبصيرة النافذة)) (٣٩)

هذا بالطبع يمثل قساوة كلامية نقدية لجعل شعر المعري يندرج تحت اطار مذهب الفن للفن الذي يقصر همّه بتفحص جماليات النص عبر اقتناص التلاعب اللغوي والاسلوبي ،ولاقيمة لتأثيرات المجتمع في هذا العمل الابداعي ،وهو ما يتنافى مع اقواله على مدار كتابه (تجديد ذكرى ابي العلاء) وكتابه هذا من كون المعري شديد التأثر والتأثير في بيئته ..في حين ان الادب ((كائن واحد غني متماسك ومتميز من جهة ومتداخل من جهة ثانية مع الشروط التاريخية والحضارية والثقافية،مع العلم والفلسفة والتاريخ والدين والاخلاق وما الى ذلك)) (٤٠).

اذن كيف يمكن قبول هذا الرأي ؟ بالتأكيد لايمكن الركون الى هذا الرأي من جانبين :الاول يتضمن شدة التصاق المعري بمجتمعه والتفاعل معه رغم لزوم منزله،فقد كان يسمع من طلبته ويتبادل معهم ومع زواره الآراء ويشعر بما يشعر به الناس من غبطة وسعادة والم جرّاء الاحوال التي يعيشونها في المجتمع باتجاهاتها المتعددة .وفي ضوء ذلك يكتب لكي يفيد الناس وما انتقاداته للناس والمجتمع في اللزوميات الا دليل على تأثيره وتأثره في المجتمع .اما الجانب الآخر فيتمثل بكون فلسفته وجدت لكي تظهر لا لكي تضمر وتخفى على الناس لانها تتأصل في جوهرها على اكتناه الحقيقة ولو بشق الانفس عبر الاهتداء والاقتداء برؤى العقل .ولايحتمل العقل الانطواء على نفسه والتستر على ما يبغيه ويريده .

فالاراء الفلسفية المنبثة في اشعاره لا يمكن ان تكون قد كتبت لارضاء ابي العلاء ذاته ،لانها صدرت عن عقله ومرجع الذوق الى عقله ايضا وهذا ما لايصح الا في نزر يسير ..بل كتبت حتما لعقول مختلفة عن ذلك العقل الذي اصدرها حتى ترى حجمها وسلطتها والى اي مدى ستنتهي وتتقوقع او تقوض .
وعليه اذا ما كان الامر كما رآه طه حسين فلا فائدة من اللزوميات ولما تأثر بها المجتمع اشد التأثير.اذن هي سيقت للمجتمع لا لذات الشاعربدرجة كبيرة ..وقد وقع طه حسين في تناقض كبير بعد ست صفحات من قوله بانه كتب اللزوميات لنفسه اذ اكد تفاعل المعري مع مجتمعه تفاعلا كبيرا واشعاره في اللزوميات تؤيد ذلك وهذا ما يتضارب مع نصه السابق فهو يرى ان ابا العلاء ((يحب الصمت ولكنه يقبل على الكلام ويغرق فيه،وهو يحب العزلة ولكنه في اثنائها متصل النفس بالناس لايستطيع ان يقطع بينها وبينهم الاسباب.واقرأ اللزوميات وتتبع ما فيها من النقد الاجتماعي والسياسي فسترى ان ابا العلاء لم ينقطع قط عن الناس انقطاعا تاما وانما عاش معهم وتأثر بما تأثروا به،وراقبهم مراقبة متصلة دقيقة فانكر من امرهم ما انكر وعرف من امرهم ما عرف واتخذ من هذا كله مادة لفلسفته وشعره فسلّى نفسه ووعظ الناس)) (٤١) واذا ما اخذنا بجملة (ووعظ الناس) فانها حتما تدل اكثر من غيرها على نقده الاجتماعي وما هي الا سلسلة اتصال متينة بينه وبين المجتمع وما كتبه اراد له الخلود في نفوس الناس عن طريق نصحهم وارشادهم وبيان مفاسد المسيئين منهم، التي يجب الابتعاد عنها .لذا لايمكن قبول اغلاق ابواب اللزوميات على ابي العلاء وحده .
كما توجد هناك ملاحظة جوهرية وهي ان كتابه يقع في ٢٣٢ صفحة- واتخذ ١٩٦ صفحة منها في تحليل شخص ابي العلاء وفلسفته وما الم به من اهوال الحياة عن طريق شرح ومحاورة اشعار لزومياته وما تبقى من صفحات كان من نصيب كتابه النثري (الفصول والغايات) وهو في كل ذلك يلتمس العذر لصاحبه لما اقترفه من اخطاء ..اذ يرجح سبق تأليف كتاب الفصول والغايات النثري على اللزوميات،ورغم الاختلاف الطفيف يرى التوافق والانسجام بينهما من نواح عدّة ، فاللزوميات نسخة منظومة عن الفصول والغايات وذلك من جانبين :الاول الجانب الشكلي الذي تصنع فيه المعري التزام ما لايلزم،فهو في اللزوميات سلّط على نفسه جهد الامساك بتلابيب الغرابة اللغوية والجناس المستفيض والقوافي المتعددة، والحال نفسه من خلال تبنيه السجع في الفصول والغايات وليس اي سجع، بل سجع يجهد فيه نفسه على فرض حرفين او اكثر ،كما يلتزم في فصول مختلفة احرف بعينها مثل الحاء والخاء على سبيل المثال ،ويلتزم في الغاية بحرفين يتغيران حسب حروف المعجم،فضلا عن ترتيبه الغايات كلها على الحروف والتزام حرف الالف في غاية الكتاب ،وختم كل فصل من فصوله بكلمة يلتزم آخرها بجملة من الفصول وهي (ويا لعبث الاطفال الكبار) وغير ذلك كثير ..وهي دلالة واضحة على تكلف المعري الى درجة انه اتعب نفسه واجهدها لفرض تلك الجماليات في نصوصه الابداعية .اما الجانب الآخر فهو يتمثل بالجانب الموضوعي او المضموني ،فموضوعاته الفلسفية التي ذكرناها آنفا في لزومياته هي ذاتها موجودة في الفصول والغايات .
وعلى وفق ما تم عرضه نستنتج ان قدرة المعري اللغوية ونظراته التأملية الفلسفية جديرة بالظهور بثوبين مختلفين،وهو في سرّه على ما يبدو يريد ارغامنا على انه لغوي بارع واديب متمكن وفيلسوف من طراز خاص..والا فما الداعي من تكرار التكلّف عبر التقيّد بصعوبة اللغة وغرابتها وتلوناتها والطروحات الفلسفية في كتابين منفصلين احدهما نثري والآخر شعري ؟.وهو سؤال يترك ليجيب عليه القارىء .
وختاما نقول:من يقرأ هذا الكتاب فانه حتما سيجد نفسه مرتديا ثوب الفلسفة الجامحة التي ارغمنا على ارتدائها طه حسين.وما الاقحام الفلسفي الا اشارة منه للتقرب من ابي العلاء الفيلسوف كما صرّح بذلك اكثر من مرة. اي يريد اعلامنا ان فلسفته في ادراك صغائر الامور وكبائرها اكثر تدبرا واقرب الى الجد منه الى التراخي والتذبذب في بحر السفسطائية،وهي فلسفة واعية لاتقل شأنا عن فلسفة صاحبه بشيء،ولهذا اراد صحبة المعري ليكونا صنوين لايفرقهما احد الا القادر على غلب فلسفتهما .

٣-صوت ابي العلاء:
لم يكن عمله هنا سوى ترجمة ادبية ،بارق لون لشعر المعري في لزومياته عبر الشكل المقالي الموضح لمغازيه ، اذ لم يتحدث عن ابي العلاء من حيث افراد فقرة او محور له ،بل اطلق لخياله العنان لترجمة شعره وتقديمه للقرّاء باسلوب رصين ومسلّ ،وكان دخوله في صميم ما اراد بطريقة مباشرة دون مقدمات تذكر.وربما ذلك يدفعنا الى امرين الاول: هو اعجابه المفرط بشعر اللزوميات تحديدا لكونه يمثل الكتاب الثالث الذي الفه حول المعري وتناول فيه هذا الشعر دون الاهتمام بسقط الزند وما الحق به من شعر الدرعيات ..ولنا وقفة لتوضيح هذه المسألة في ختام ما سنقدمه من المشتركات التي جمعت الكتب الثلاثة سالفة الذكر.والامر الآخر هو لبيان قدرة طه حسين اللغوية المتلألئة للتقرب من صنيع المعري المبهر والافصاح لنا عن كونه قادرا على المجاراة حتى وان كان المجارى المعري، على الرغم من اعترافه في المقدمة بصدى ما سيكتب قياسا بصوت المعري المدوي ((وما اشك في انهم سيجدون صوت ابي العلاء اعذب في نفوسهم واحب الى قلوبهم من صداه الذي تصوّره الترجمة ،لاني انا اجد صوت ابي العلاء اعذب في النفس واحب الى القلب من كل صوت ومن كل صدى)) (٤٢)
وسيرا على نحو ما قدمناه من خطوات في الكتابين السابقين اتضحت لنا بعض الملامح التي نود تسجيلها ولكننا سنتجاوز منها ما تم ذكره في ما سبق كونها تمثل حصيلة واحدة بسبب اسلوب الكاتب ذاته، ونذكر ما تفرد به حتى وان كان قليلا قياسا بكتابيه الاولين ..
اهم ما يطالعنا في الكتاب اسلوبه في شرح اللزوميات الذي جاء اسلوبا مقاليا تطمسه معالم الذاتية في لجّة الاغراق حتى تركنه جانبا، وقد علا منه ما علا وخفي منه ماخفي. وينحدر مفهومه للابيات من سطحية واضحة دون الغور في اسبار التأويل والتعمق المبصر لاكتناه ما يمكن ان يكون خبيئا متلثما قابعا خلف ستار التقية او الالغاز التي مال نحوهما المعري .وربما هي طريقة ادبية محضة تسكن في جوف ادبية الادب لان التصنع في اختيار الالفاظ وتركيب بعض الاسجاع والتفنن في ليّ الاسلوب ما هو الا احتراف لجمالية خاصة يطل منها الكاتب على قارئه برونق جديد ، وهو ما يجعلنا نحيل عمله هذا صوب ادبية الادب لانه يركز على الجانب الجمالي دون توضيح المعاني التي ينبغي بيان اضاءتها والاهتداء بها ، فهو قد حوّل الشعر الى مقالة وهذا العمل اشبه بالانشاء الذي يكتبه الطلبة عندما يعرض عليهم الاستاذ بعض الابيات ويطلب منهم التحدث عن الفكرة التي تحويها ، وان كان اسلوبهم لايرقى ولا يصل شاو اسلوب طه حسين ،الا ان العمل واحد والنتيجة واحدة وهي التحويل والايضاح من حال الى حال ...
وقد انتقى من ديوان اللزوميات انتقاءات خاصة ومتنوعة من الاشعار تفصح عن بلاغة وبراعة المعري وفلسفته ،لاسيما تلك التي تبرئه من التهم وتبعده عن الشبهات ، لكي يبرهن للقارىء ان ما حصل له من متاعب واختلاف في الآراء جاء نتيجة تأثير المجتمع فيه بصورة كبيرة ولا دخل له بكل ما جرى ،وهو ما يتوافق مع ما طرحه في المقالة الاولى في كتابه الاول ((تجديد ذكرى ابي العلاء) من ان التأثيرات السياسية والاجتماعية هي التي جعلت المعري يسير في هذه الدروب والانزلاق في الاخطاء التي رافقته طوال مسيرة حياته .
كما ان خطته هنا جاءت مغايرة عن الكتابين السابقين ،فبعد ان جاء كتابه ((تجديد ذكرى ابي العلاء) و (مع ابي العلاء في سجنه) دراسة للزومياته عبر كشف المواقف والطروحات الفكرية والفلسفية والمساءلة حولها والمحاورة معها ،جاء هذا الكتاب ليعلن الدراسة اللغوية عبر الدراية الثقافية ولا دخل للتحليل بما سيكون ،وانما بما كان قد وقع .اي تأسيسه لمقالاته كان على وفق فهم وشرح الابيات بصورة سطحية وتدل على ذلك الالفاظ دلالة مباشرة .

رؤية شمولية لما ورد في الكتب السابقة

وعلى هامش ما قدمناه من رؤى نقدية غير متحاملة عبر تمثل ودراسة النسج المتأطر في كتبه الثلاثة خرجنا بنظرة عامة تصب في مجرى المشتركات التي اصطبغت بها تلك الكتب ولكثرتها لاسيما تلك التي كان حظها قليلا رغم فائدتها، ارتأينا توثيق اربعة مشتركات رئيسة علّها تفيد القارىء ويمكن ادراجها على النحو الآتي:

١-لاتخفى على كل ذي بصيرة بصمة الدفاع عن المعري في كتبه والتهافت على ردع كل ما قيل عنه في مجال مسّه بسوء،لا لأجل شيء الا من باب فرط حبه له..ففي معرض حديثه عن التكسب في الشعر على سبيل المثال يظن ان ما جال في خاطر المعري وعقله صحيح ولا لبس فيه ،فيرى رفض المعري للتكسب بشعره من جانبين الاول بشاعة الكذب وقبحه كصفة غير مرغوبة بالنسبة له ،والآخر ان ما يتقاضه من تكسبه هو مال حرام يذهب بماء الوجه .وذيل ختام استنتاجه بالتعريج الى ترسيخ سمة الزهد في نفسه وما جبّلت الا عليها ،اي ان رفضه التكسب ليس الا من جهة زهده ((كره ابو العلاء ذلك ولا شك في انه تصور شيئين عندما خطر له خاطر التكسب بالشعر:احدهما بشاعة الكذب وقبح اثره في نفس الكاذب ونفس المكذوب عليه ...الثاني:ان ما يفيده من التكسب في الشعر انما هو مال حرام قد استحلّ ظلما ،وربما كان صاحبه مضطرا اليه وربما كان رزق صغار او امرأة عاجزة ولاشك في ان اصحابه لم يسلموه الا كارهين ...كل هذه الخواطر خطرت لابي العلاء حين عرض له التكسب بالشعر ،فصادفت منه نفسا ابية وقلبا رحيما ومزاجا معتدلا ورجلا مستعدا للزهد فصرفته عما تهالك الناس عليه وجعلته اعجوبة ايامه)) (٤٣) وكذلك قوله : ((واذا كان ابو العلاء قد حدثنا في مقدمة كتابه انه لم يتكسب بشعره فقد اراحنا من البحث،لانه عندنا صادق مأمون)) (٤٤) .

ونحن اذ نحاور هذه القضية لاننكر ما جاء به القدامى والمحدثون من ابعاد صفة التكسب عنه ،بل ننكر الاستنتاج الذي خرج به طه حسين من ان رفضه للتكسب بشعره كان بدافع الزهد .فليس من المعقول ان يرفض اي شاعر التكسب بشعره ويحسب ذلك على تزهده ،فكم من الشعراء وهو ما حفل به تراثنا الادبي العربي رفض التكسب بشعره رغم عدم التزامه بالزهد او الادخار بجزء من الايمان ؟ فكيف لنا استساغة الاستنتاج الوارد والتعامل معه وهو يحمل صفة الدفاع واباحة الاعذار .

كما انه يلتمس له الاعذار عن كل ما صدر عنه من آراء مستهجنة منافية لزهده وايمانه مثلما اراد له ..نذكر منها ما قاله مدافعا عنه في هذا الصدد((فاما العقل الذي يؤمن بالله ويثبت له العدل والحكمة فهو ظالم لنفسه ان تمرد وباغ عليها ان ورطها في الانكار والجحود ،ولكن ابا العلاء معذور بعض العذر فيها تورط فيه ودفع اليه ،فقد كان مضطرا الى ان يعيش في بيئته التي عاش فيها والى ان يشارك هذه البيئة فيما كانت قد دفعت اليه من الوان الجدل في الدين والفلسفة.فهو اذن مضطر الى ان يثبت وينفي ،والى ان يعرف وينكر والى ان يقبل ويرفض)) (٤٥) ..وهناك امثلة عدّة تحمل الخاصية ذاتها من الدفاع عنه .

وعلى ما يبدو فان سرّ اعجاب طه حسين ودفاعه عن المعري وابعاد الشبهات عنه قد جاء بفضل المنهج التاريخي العلمي الذي استخدمه والذي اراد له النجاح باي شكل من الاشكال،فالتأثيرات الاجتماعية القاسية التي مارست سطوتها على المعري هي قابعة تحت ظلال حركة كبيرة هي حركة التاريخ، وبما ان الامر كذلك فلا احد يستطيع الابحار ضد هذا التيار لانه الفوقي والقوي .لذا فالمعري على هذا الاساس معذور وغير ملام لان التأثيرات الاجتماعية هي التي صنعته بشكله هذا ولا قدرة له على درىء خطرها.

٢-لاننكر موضوعية طه حسين في تناول القضايا ومعالجتها ولكن هذا لايمنع من وقوعه في هوّة الزلات التي تحسب عليه ،ومن هذه الزلات ما امتاز به نقده من الذوقية الخالية من الموضوعية ،فعلى سبيل المثال نعرض شدّة افتتانه بقصيدته الرثائية التي مطلعها :(٤٦)

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولاترنم شاد

فقد عدّها الوحيدة في الرثاء ولايمكن مجاراتها .اذ اعتقد ((ان العرب لم ينظموا في جاهليتهم واسلامهم ولا في بداوتهم وحضارتهم قصيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حسن الرثاء.نتهم ذوقنا ونتهم انفسنا بالتعصب لابي العلاء اشفاقا على الآداب العربية الا يكون فيها من الرثاء الجيد ما يعدل هذه القصيدة ولكنا نضطر بعد الدرس واجادة البحث الى تبرئة انفسنا من هذه التهمة)) (٤٧) وفي موضع آخر يقول : ((وعلى الجملة فان اجادة ابي العلاء لفن الرثاء تنحصر في هاتين القصيدتين وعندنا انه قد بزّ بهما شعراء الرثاء جميعا في الجاهلية والاسلام)) (٤٨)
كما انه يقف في نقده عند بيت واحد ويحمّله من صفات الارتقاء ما لايطاق .مثال ذلك ما قاله عن قول المعري : (٤٩)

الم تر انّ المجد تلقاك دونه شدائد من امثالها وجب الرّعب

من غلو واضح في الوصف ((فلو اني صادفت هذه الصيغة عند شاعر غير ابي العلاء عند المتنبي مثلا او ابي تمام لاشبعته لوما ونقدا وتأنيبا ،ولكني حين صادفت هذه الصيغة في شعر ابي العلاء لم ازد على ان ابتسمت ثم استعدت البيت فضحكت ضحكا خفيفا ثم احببت هذا الاسلوب في هذا الوضع واطمأننت اليه)) (٥٠) .
هذه المحاباة والتماس الاعذار له تتناقض مع رأيه الذي بثه في اكثر من مرة في كتابيه الاولين وهذا الرأي يقول ان التاريخ ميدان لايسمح لاحد ان يحمد او يذم اطلاقا اذا ما التزم منهجا للدراسة ((ولسنا نحمد ابا العلاء ولا نذمه، لان قاعدتنا في تأليف التاريخ لاتسمح لنا بذلك كما قدمنا في تمهيد الكتاب)) (٥١) ..اليس هذا ضربا واضحا من التناقض.فكتبه الثلاثة كما اشرنا سابقا محاولة جادة للدفاع عن المعري ودرء التهم عنه قدر المستطاع ، فكيف يتسنى لنا فهم هذا التناقض ؟..
وقد فطن النقاد الى هذا اللون من النقد ونبذوه واخرجوه من دائرة اهتمامهم كونه لايرقى بالنص الى مراتبه العليا الحقيقية الا من زاويا تناسب فكر ومنهج المؤلف ..فالنقد البناء هو ما يجري مجرى الموضوعية المتفحصة والعلمية الصائبة حتى يخرج بنتائج مستحسنة وهذا يأتي عبر الحياد دائما.
٣-اتسمت طريقته في عرض مضامين كتبه وتحليلاته بالشك ،وهي الطريقة التي اتخذها معيارا في اغلب مؤلفاته، فهو قد انطلق من العقلية التنورية لدراسة النص الابداعي او التاريخي راكنا بذلك كل الرؤى الاصولية المتواترة عن هذا النص او ذاك . والشك القائم هنا هو لمحاولة ايجاد فهم آخر للروايات المقدمة حول ابي العلاء وادبه ..اذ ان اغلب صفحات كتابه وهو تجديد ذكرى ابي العلاء على سبيل المثال حملت تعنيفا وتشكيكا بهذه الرواية او تلك مستنتجا منها ادلة ،وهو ما وجدناه في كتابه مع ابي العلاء في سجنه ..وقد اصاب في بعضها واخطأ في بعضها الآخر .واصابته جاءت من خلال وقوفه على ادلة تاريخية تدعم ما توصل اليه ، بينما لا تجد ذلك الدعم متوفرا في كثير من استنتاجاته الاخرى لانها افتراضية تستند فقط الى ظاهر الرواية اللغوية . وهذا ما يجعل ما تم التوصل اليه ضئيل الحظ عند القارىء .
وقد ذكر طه حسين انه حمل نفسه على التمسك بمبدأ الشك الديكارتي بقوله :((أريد أن أقول إني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة. أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء ، والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرَّد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً))(٥٢). كما ان منهجه قائم على

بيان اثر المجتمع باختلاف الاصعدة في سلوكيات الاشخاص وعدّ ما جاء به سانت بيف المثل الاعلى لدراسة الظواهر الادبية من خلال ربطها بالبيئة وتأثيراتها .
٤-تطالعنا سمة الاعتداد بنفسه كثيرا ،وهي سمة دائما ما ينفر منها القرّاء ظنا منهم ان المؤلف متعال ولايرضى الا بآرائه ،وفي النهاية تؤدي الى فتور العلاقة ما بين الاثنين ،وهذا الاعتداد واضح المعالم لايمكن للسحاب تعميته .ولنا وقفة لذكر بعض من كلامه الدال على اعتداده ..ففي مقدمة كتابه تجديد ذكرى ابي العلاء يصرّح ان ما سيقدمه من معلومات فيه سيكون مغايرا عن كل ما سبق ،وذلك بفضل منهجه اذ يقول : ((فاني لا اعرف قبل اليوم كتابا ظهر على هذا النحو من البحث وربما لا اغلو ان قلت اني لا اعرف كتابا في الاداب العربية قد وضعه صاحبه على قاعدة معروفة وخطة مرسومة من القواعد والخطط التي يتخذها علماء اوربا اساسا لما يكتبون في تاريخ الاداب ، فاما انا فقد وضعت لهذا الكتاب خطة رسمتها رسما ظاهرا في هذا التمهيد الذي يلقاك بعد الفراغ من هذه الكلمة)) (٥٣)
وفي موضع آخر يرى نفسه خير من فهم الفلسفة العلائية وفصّل القول فيها فيقول: ((ولعلنا اول من استطاع ان يفصّل الفلسفة العلائية تفصيلا يظهر الناس على اسرارها ودقائقها وينزلها من عقولهم منزلة الشيء الواضح المفهوم)) (٥٤)
ويذكر في مقدمة كتابه صوت ابي العلاء اهمية ترجمته لشعر المعري لانها ستغني القارىء وسيظفر من خلالها بالفائدة ((وينكر قوم هذه الترجمة لانها لون جديد من الوان الادب العربي الحديث ...فمن استطاع ان يقرأ هذه النصوص دون ان يحتاج الى ترجمتها فليفعل وخلاه ذم .ومن استطاع ان يقرأ الترجمة وعجز عن قراءة النص فليفعل وحسبه ما يظفر به من الفائدة)) (٥٥)

وعود على بدء ينبغي علينا الاجابة على السؤال الذي وضعناه في بداية البحث ومضمونه يقول : ماهو سرّ افتتان طه حسين بابي العلاء ؟ ولماذا لم يكتف بكتاب واحد كما فعل مع غيره من الشعراء والشخصيات يحوي كل خواطره وافكاره التي تجول في رأسه ؟.
وتأتي الاجابة على شكل منحيين اثنين
المنحى الاول :هناك روابط عدّة ظاهرة تجمع بين الاثنين ،ولربما هذه الروابط هي التي دفعت طه حسين للخوض في عالم المعري المتشعب ،ومحاباته والسير على منواله مع بعض الاختلافات في الآراء والتعايش المجتمعي وما الى ذلك ..ويمكن حصر الروابط المهمة وترك الاخرى التي ليس لها قيمة تذكر على وفق النقاط الاتية :
١-كلاهما اشترك في آفة العمى والقدرة على التحليل وممارسة الكتابة باساليب مبدعة ، فضلا عن بصيرتهما الادراكية وتنورهما الفكري العميق في معالجة الاشياء والظواهر .
٢-اتخذ كلاهما سياسة الالتزام بمبدأ الشك والتحقق للتوصل الى الحقيقة التي تفيد المجتمع وعلى ما يبدو فان اشتهار ابي العلاء بافكاره وآرائه وكيف شغل الناس واصبح تراثا يستضاء به اثار حفيظة طه حسين مما جعله يسلك الطريق ذاته كي يشار له كما اشير للمعري من قبل ،وما كتابه (في الادب الجاهلي) والجدل الذي دار حوله الا دليل على سلوكه هذا الطريق للدخول الى ابواب الشهرة ليس الا ..وهو رأي قد لايكون ملزما بقدر ماهي حقيقة تترك للقارىء وله ان يقرر بعدها .
٣-لاتخفى على كل ذي فطنة ما الم به المعري من معارف وعلوم متنوعة وتشربه من معين الفلسفات والديانات المختلفة،وقد اثرت في طرح آرائه بصورة متناقضة وهو الحال نفسه ينطبق على طه حسين الذي تغذى من الفكر الاسلامي والغربي في آن واحد وارضخ عقله لاستيعاب المتناقضات المبثوثة في الفلسفات والمعارف الكثيرة . حتى ان منهجه في دراسة النصوص ومعالجتها جاء متلونا يستخدم المنهج النفسي تارة والاجتماعي والنظرية العقلية وتحقيق النص وغيرها من المناهج تارة اخرى.
٤-ما تعرض له المعري من اضطهاد بعض الناس له بسبب آرائه وافكاره هو ماحصل لطه حسين ايضا .فقد اضطهد من اهل عصره ((مرة بسبب روايته المعذبون في الأرض (التي صودرت كذلك قبل

١٩٥٢) ومرة بسبب رأيه في ضرورة إبعاد الصبغة الدينية عن دستور ١٩٢٣، ومرة بسبب كتابه في الشعر الجاهلي، ومرة بسبب كتابه مستقبل الثقافة في مصر الذي ربط فيه ثقافة مصر بثقافة حوض البحر المتوسط.)) (٥٦) وهذا مما يعمق وجه التشابه اكثر بين الاثنين.
اما المنحى الآخر:قد يكون لاشتهار المعري وبلوغ صيته المدى التأثير الكبير في اقدام طه حسين على الاهتمام به والانكفاء على دراسته دراسة مستفيضة جاءت بنحو ثلاثة كتب وشرح ديوان اللزوميات وجمع كل ماكتب عنه في كتاب ضخم اسمه (تعريف القدماء بابي العلاء) فضلا عن المشاركة في المهرجانات الخاصة بالمعري والمقالات في الصحف والمجلات الدورية والعلمية، وربما ظن ان من يدرس شخصا موهوبا كابي العلاء كثرت الدراسات وازداد التقول حوله فسيكون في مكانة مرموقة من الاهمية، لاسيما اذا ما اخرج للنور شيئا جديدا يختلف عن كل ما سبقه . وهذا ما اكده طه حسين في اكثر من مرة في كتابه (تجديد ذكرى ابي العلاء) من انه سيقدم شيئا لم يألفه احد من الدارسين .وقد اشرنا الى ذلك في موضع من مواضع البحث .
وفي نهاية التسطير الذي قدمناه عبر القراءة النقدية يمكن بيان الاستنتاجات العامة وذلك في اطارين :

الاطار الاول مايخص شخص المعري وهو كالآتي :

١-محاباته للمعري كانت محاباة عمياء ظنا منه لشبه ما حصل لكليهما ابتداء بآفة العمى وانتهاء بانتقادات الناس.
٢-نتيجة لهذا الحب ابعد عنه الكثير من الزلات والاخطاء والتمس له الاعذار ودفاعه كان من العيار الثقيل البائن حتى وصل الى مرحلة اسطرته لما يراه فيه من شخص ذي طراز خاص لامثيل له.
٣-كل ما وقع به المعري من اخطاء فضحتها نتاجاته المبدعة لم يحسبها عليه معللا ذلك بوقعه تحت وطأة الظروف القاسية التي المت به .
٤-في نظره ان المعري انسان متزهد مؤمن ولا غبار على ذلك وهو احد الفلاسفة الاسلاميين وما حصل له من اضطراب وآراء متناقضة هو من وحي تأثير المجتمع القاسي عليه .

الاطار الآخر ما يخص ادبه وثقافته:
١-رأى في ادبه شعرا ونثرا قمة ابداعية لاتبارى فهو الاديب المتفلسف الذي لم ولن يتخطاه احد مهما سيأتي به من افكار وطروحات .
٢-في مجال لايدعو للشك اهتم كثيرا بشعره دون نثره بدلالة كتبه الثلاثة التي ركز فيها على تجلية آرائه من خلال الوقوف على الشعر ، فضلا عن اهتمامه بشرح اللزوميات في كتاب خاص هو (شرح اللزوميات).
٣-مثلت اللزوميات بالنسبة له خلاصة التجربة العلائية الواعية التي جاءت مضطربة في ديوانه الاول سقط الزند الذي الحقت به اشعار الدرعيات. لهذا فهو قد رغب بطرح ما اراده بعد قراءة اللزوميات قراءة واعية ظنا منه ربما انها قريبة من تجربته بجزء من تفاصيلها .
٤- راى فيه شخصا ذكيا فطنا ولغويا بارعا لايصل شاوه احد ،وفيلسوفا متنورا استوعب المتناقضات كلها وصقلها بدراية متعقلة وانتج لنا ما انتجه في قمة ابداعه المرسوم في اشعار اللزوميات.

وانطلاقا من المضامين التي اوردناه وما افرزته من بيان مسار طه حسين في عكسه ما حصل للمعري بمرآته النقدية . تجدر بنا التكاملية وتدفعنا الى الخوض في مضمار ايضاح الخطاب النقدي لطه حسين على مدار كتبه التي عرضناها آنفا .اذ من التعسف والشطط التغافل عن بيان كينونة الثقافة النقدية التي

تمتع بها والتي من قيعانها انبثقت الرؤية الشمولية حول المعري ويمكن ايراد ذلك على شكل نقاط وهي كالآتي:

١-لم تنل الحداثة من مساره الفكري اطلاقا مثلما حصل للكثير من النقاد عندما راحوا يلهثون خلف سحب الحداثة وما جاءت به من مزايا مختلّة مضطربة .وانما انطلق من جوهر التحديث لا الحداثة وثمة فرق بين المصطلحين، فالاول يعني الاهتمام بالتراث القديم ومحاولة تأصيله عبر ارفاده بكل ما هو جديد من فكر وفلسفة ورؤى واتجاه وما شابه ذلك ، اما الثاني فيعني السير على خطى ما جاء به الغربيون دون تفحص ومساءلة قدر تعلق الامر بالادب والنقد .لذا فقد اهتم بتراثنا الادبي العربي من خلال وقوفه على المعري ،وتطويره حسب ما اكتسبه من ثقافة اوربية سهلت عليه استخدام منهج موضوعي كفيل بالوصول الى نتائج مهمة. كما اشار هو في مقدمة كتابه تجديد ذكرى ابي العلاء اذ يقول : ((هذا المثال المشوه لا بد من ان يكمل يوما اذا عنى الناس عناية صحيحة بدرس الآداب على المناهج الحديثة . ولست ازعم انا لسنا في حاجة الى درس الآداب على المنهج القديم، بل اقول انا في حاجة الى المنهجين معا، في حاجة الى المنهج القديم لتقوى في انفسنا ملكة الانشاء،وفهم الآثار العربية التليدة ، وفي حاجة الى المنهج الحديث لنحسن استنباط التاريخ الادبي من هذه الآثار)) (٥٧)

وهذا يعني محاولة انتاج التراث من جديد وبعثه بروحية مختلفة تتمازج مع الروح والسمة الحضارية الآنية .فضلا عن ذلك فانه لم يغرق في لجّة التذبذب مثلما حصل لغيره من النقاد رغم تطبيقه مناهج متعددة في مؤلفاته ،بل استمر نهجه على منوال واحد من حيث الاهتمام بالتراث واحترامه واخراج كل ما هو جميل فيه .اي انه على الرغم من استخدامه المنهج التاريخي بنسخة غربية اراد لها الانتشار ولم يرد لها الطغيان على فكره فانه حاول التقليل من حدتها بالاتكاء على المنهج القديم الذي كان قد اكتسبه من الازهر تحديدا.فقد مزج بين الاثنين بروح التجديد واخرج لنا ما اخرجه عن المعري.

٢-تشكل خطابه من ركيزة التفحص التجريبي عبر تقصي الاحداث التاريخية ومقاربتها مع الواقع الآني للخروج بحصيلة من الاستنتاجات المغايرة لكل ما تم ذكره في هذا المجال او ذاك وقد امتاز خطابه بالقدرة الاقناعية المؤثرة بفضل العرض المضمر والشيق ، كما انطلق من رحم فكري متجذر في العلمية رسم ملامح الرؤى المرادة بقالب سلس من الاساليب ،وهو في مجمله يعمل على تحليل عناصر الشيء وارجاعه الى اولياته ومن ثم تدبره بعقل لاعطاء الشمولية الفكرية التي يجب بناء هذا العنصر او ذاك . وقد شكك في اغلب الروايات الواردة حول المعري وتصادم معها حتى خرج بنتائج مختلفة اتصفت بالشمولية .اي انه لم يقبل بالحلول والآراء الجاهزة من حيث تبني آراء النقاد والسير على هديها ،وانما عمل على التفاعل معها ومعارضتها حسبما اقتضت الحاجة الى ذلك .

٣-اتسم خطابه بالتنامي الفوقي ففي كتابه الاول حاور المحاور التاريخية وتلثم بها طوعا وفي الثاني افرز لنا نتاجا فلسفيا واعيا بتأملات رحبة عبر فضاء الخواطر الساكنة في جوف عقله والثالث مثل استنطاقا لغويا صارما لشعر المعري .مما يوحي ذلك بالعمق المعرفي والادراكي والتوسع الشامل لقراءة ماض كامل وتراث جمّ مدعوم بفلسفة متنورة متلألئة قادرة على تحري الحقائق المضمرة ومجاراة حوارية متلبسة بقناع المفهومية والعلمية .ومستند في النهاية الى لغة ممتلئة قوامها التلون الاسلوبي المفضي الى الحقائق والمؤثر في النفوس . اي ثقافة متطورة وفلسفة متبصّرة واسلوب ضخم وجميل .وهذا ما امتاز به خطابه النقدي عن الآخرين من النقاد الذين ربما يمتلكون احدى تلك الصفات دون الالمام بها معا .

٤- يبدو ان خطواته جاءت ملبدة بسحب التعتيم دون دراية منه في مجال سيره على نهج نظرية القراءة . اذ نلمس اقحامه في فهم النصوص وليّ الاحداث لمحاولة سد الثغرات التي تعثر بها المعري . وقد عمل على سد الفجوات كما يذكر ذلك اصحاب نظرية القراءة من خلال تنصيب نفسه قارئا متفاعلا مع النص ومنتجا له في الوقت ذاته . فهو في كتابيه الاولين عمل على اعادة انتاج ما يمكن انتاجه وخرج لنا بكينونة معرفية جديدة تتطلب منا التنبه لها واحترامها . اي ان طه حسين ناقد منتج كما تسمح بذلك

نظرية القراءة، وان كان لم يذكر ميله لهذه النظرية، الا ان الاطار العام يفصح جليا دون هوادة عن ذلك .

٥-لم تكن لغة خطابه النقدي ملتوية مبهمة غامضة كما يرتأيها اغلب النقاد ،بل واضحة ومستساغة ولكنها ذات سلاسة وقيمة ادبية مؤثرة ،وهي لغة عالية الجودة من حيث التوظيفات التراكيبية والتلونات الاسلوبية . هذه القيمة والبساطة اراد منها تقريب المسافة الفهمية للقارىء باقل جهد وعناء لا اجهاده بصنيع لغوي متمايز ملغز حسب الاشتهاءات السريالية الغامضة بحيث لايمكن فك مغاليقه.فمتاهات اللغة النقدية المقحمة بالرمزية والمغرقة بالغموض والمجارية للغة النص الابداعي المنقود تشتت القارىء في لم شمل الفكرة المخفية خلف تركيب او نسق اسلوبي ما . وهذا ما يميل اليه اغلب النقاد الجدد ظنا منهم برقي هذا اللغة التي تتوازى مع لغة النص المحاكاة.

الخـاتـمـة

ان مشروعية الاكتمال والوصول الى الذروة المبتغاة تحتم علينا تقديم المؤثرات المهمة والنتؤات البارزة في العمل الذي تمت محاورته . وفي خضم الصراع الهادىء الذي تكلل في المتن توصلنا الى بعض النتائج المهمة وهي تصب في منحيين الاول ما يخص المعري والآخر ما يخص طه حسين ..اذ توصل البحث الى ان خطاب طه حسين النقدي الخاص بالمعري كان خطابا تشوبه التأثرية الانطباعية . اذ دافع عن المعري كثيرا والتمس له الاعذار على الاخطاء التي وقع فيها وعمل له ثغرات انجاه من خلالها من التهم التي سطرت حوله وعلى لزومياته ايضا . وكان نصيب هذا الدفاع الوصول بالذوقية الى مرتبة عليا.فكانت استنتاجاته مبنية سلفا على ما قاله المعري . فهي محاباة علنية لايمكن اغفالها . وفي تصوّره فان المعري اديب وفيلسوف في الوقت نفسه ،واستدل بذلك على بعض الشواهد وان كانت بعضها غير دقيقة وسطحية لاترقى ولاتدخل في باب الاهتمام مطلقا .وجاء تركيزه ملحا على التفاني بشعره دون نثره، لاسيما التمركز حبا في دائرة اشعار اللزوميات التي رأى فيها خلاصة تجربة المعري المصقولة بالفلسفة والفكر المرتوي .وهو في مدارسته للمعلومات التاريخية المتوافرة لديه وما قدمه المعري نفسه في اشعار اللزوميات من احداث ومواقف تمسك بمبدأ الشك الديكارتي الذي يتجه نحو عدم المصادقة على كل ما قيل سلفا في هذا الجانب او ذاك وتفحص الامر وتدبره من زاوية اخرى ،وصولا الى حقيقة يعدّها غاية في الاهمية لانها جاءت بعد تمحيص وتحليل ومساءلة وتشكيك فاعل . ولم تختف نبرة الاعتداد بالنفس على مدار كتبه الثلاثة وقد صرّح بذلك علنا في اكثر من موضع .

اما المنحى الآخر الخاص بطه حسين فيصب في مجرى تعدي خطابه الخاص حول المعري الى خطاب اعم واشمل في مؤلفاته جميعها على ما نعتقد .فعلى مدار كتبه التي اسلفنا الحديث عنها نلمس تنامي خطابه تناميا فوقيا وبحساسية مفرطة عبر جمعه ثقافة متطورة وفلسفة مستنيرة ولغة رصينة جميلة، الى جانب تركيزه على اسلوب تقصي الاحداث التاريخية والتعامل معها بتفحص تجريبي بغية ايضاح الكينونة الجوهرية التي قد تكون مخفية عن القارىء . وقد انطلق في تفعيل خطابه من روح التحديث المعاكس للحداثة ، فهو يتسامى بالتحديث الذي يركز على تدعيم التراث القديم بقواعد واساليب الجديد من فكر وفلسفة وتيار، شرط افادته لا التصادم معه او التقليل من شأنه ، اي انه اعتز بتراثه واراد له النور والدوام وترك عالم الحداثة لمن يرغب الدخول فيه . لذا فهو ركز على النور المستضاء في ذلك التراث المتمثل بابي العلاء ..ولم يترك طه حسين نفسه اسيرة لما تواتر، وانما جعل منها قارئا آخر للنص يتفاعل بشكل كبير معه سامحا له باضافة دلالات جديدة وحذف دلالات اخرى متعارفة حسبما يقتضيه النص ويسمح به. ولم تكن لغته رغم هذه الفوقية النقدية سوى لغة سهلة مقبولة مهمتها تقريب التجربة والمفاهيم باسرع وقت ممكن الى القارىء والتأثير فيه .

وعلى هامش خصوصية ما توصلنا اليه اتضحت لدينا بعض المشتركات التي ربما كانت السبب في اندفاع طه حسين لقراءة المعري بهذه الحساسية المفرطة والروحية الخصبة . منها اشتراكهما في آفة

العمى وادراك الاشياء والتيقن منها وتفحصها ومعالجة القضايا من زاوية متعددة بطرق متنورة . وكذلك التزامهما بمبدأ الشك وعدم التسليم بما قيل من قبل من اجل التوصل الى ركائز اعمق واكثر صحة . فضلا عن ان ما تعرض له المعري من اذى من قبل الناس هو الحال ذاته حصل لطه حسين و قصة كتابه في الشعر الجاهلي شاهد على ذلك التعسف والاضطهاد حسبما يرى ذلك بعض النقاد ..كما ان اكتساب المعري للعلوم والمعارف المختلفة التي ابرزته في عالم الادب العربي هو ما اكتسبه طه حسين ايضا ولكن باختلاف الاتجاهات والفلسفات تبعا لاختلاف عصر الاثنين .

الهوامش

١-معجم الادباء – ياقوت الحموي-١/١٦٢
٢-وفيات الاعيان-ابن خلكان-١/٦٤
٣-معاهد التنصيص- الشيخ عبد الرحيم بن احمد العباسي-١/١٣٧
٤-تاريخ الاسلام-الذهبي-٢٠٠-٢٠١
٥-معجم الادباء-١/١٧٠
٦-معاهد التنصيص-١/١٣٩
٧-تاريخ الاسلام-٢٠٠
٨-وفيات الاعيان-١/٦٤
٩-معجم الادباء-١/١٦٩
١٠-وفيات الاعيان-١/٦٥
١١-تجديد ذكرى ابي العلاء-طه حسين-٦٤
١٢-نفسه-٨٦- لمعرفة المزيد عن الذين تبنوا الفلسفة في اشعارهم سواء في ادبنا العربي او الغربي انظر كتاب- في الادب الفلسفي-محمد شفيق شيّا-١٠٥-١٣٣
١٣-نفسه-٢١٢
١٤-انظر على سبيل المثال-موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر ابي العلاء المعري-د.زهدي صبري الخواجا-٢٣٩-٢٤٠ وينظر –في الادب الفلسفي-١٢٦
١٥-في الادب الفلسفي-٨٧
١٦-مع ابي العلاء في سجنه-طه حسين-١٣٢
١٧-تجديد ذكرى ابي العلاء-١٦٢
١٨-ديوان اللزوميات-١/٣٨٥
١٩-تجديد ذكرى ابي العلاء-١٦٥
٢٠-اللزوميات-١/٤٠٥
٢١-تجديد ذكرى ابي العلاء-١٩٠
٢٢-نفسه-١٨٩
٢٣-نفسه-١٨٨
٢٤-نفسه-١٥٩
٢٥-نفسه-٧٦
٢٦-في الادب الفلسفي-٨٠-٨١
٢٧-تجديد ذكرى ابي العلاء-١٤٧
٢٨-نفسه-١٥٩
٢٩-اللزوميات-٢/١٨٦-١٨٧

٣٠-نفسه-٣١٧/١
٣١-مع ابي العلاء في سجنه-٢٣
*-هناك ادلة عدّة على ابتعاد المعري عن التصنع في اشعاره عن طريق ابدال لفظة مكان اخرى او تخير اللفظ المناسب للقافية وبالعكس، مثال ذلك اشعاره التي ارتجلها ارتجالا في محافل عدّة وفيها من اللفظ الجميل والبراعة المضمونية والتخير المفيد للقافية ما يدحض تلك الاقاويل . فقد اورد القفطي على سبيل المثال قصيدة انشدها المعري ارتجالا امام صالح بن مرداس عندما ذهب اليه ليتشفع لقومه وفيها يقول:

تغيّبت في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الاقلّ وحمّ لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعا الى صالح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منّي سجع الحمام واسمع منه زئير الاسد
فلا يعجبنّي هذا النّفاق فكم نفّقت محنة ما كسد

القصيدة في ديوان اللزوميات-٢٤١/١
٣٢-اللزوميات-١٣٠/٢
٣٣-نفسه-٨٨/١
٣٤-مع ابي العلاء في سجنه-٩١-١٠٠
٣٥-نفسه-١٠١-١١٤
٣٦-اللزوميات-٨٨/١
٣٧-مع ابي العلاء في سجنه- ١٣٢
٣٨-نفسه-١٣٥-١٣٦
٣٩-صوت ابي العلاء-طه حسين-نقلا عن –من تاريخ الادب العربي-طه حسين-٧٧٧
٤٠-في الادب الفلسفي-٩٠
٤١-مع ابي العلاء في سجنه-١٤١
٤٢-صوت ابي العلاء-نقلا عن –من تاريخ الادب العربي-٧٧٨
٤٣-تجديد ذكرى ابي العلاء-١٢٥-١٢٦
٤٤-نفسه-١٩٠
٤٥-مع ابي العلاء في سجنه-١٧٥
٤٦-ديوان سقط الزند-٤٩
٤٧-تجديد ذكرى ابي العلاء-١٩٩
٤٨-نفسه-٢٠١
٤٩-اللزوميات-٨٨/١
٥٠-مع ابي العلاء في سجنه-٩٩
٥١-تجديد ذكرى ابي العلاء-٢٨٨
٥٢- في الشعر الجاهلي – طه حسين - ١٩
٥٣-تجديد ذكرى ابي العلاء-١٢
٥٤-نفسه-٢٣٣
٥٥-صوت ابي العلاء-نقلا عن –من تاريخ الادب العربي-٧٧٨
٥٦-على هامش الشعر الجاهلي-جريدة الحياة-٢٠٠٦/١٠/١٦
٥٧-تجديد ذكرى ابي العلاء-٨-٩

المصادر والمراجع

١-بنية الخطاب النقدي-دراسة نقدية-د.حسين خمري –دار الشؤون الثقافية العامة-بغداد-ط١/١٩٩٠

٢-تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام-الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي-تحقيق-د.عمر عبد السلام تدمري-دار الكتاب العربي-بيروت لبنان-ط٢/٢٠٠٢

٣-تجديد ذكرى ابي العلاء-طه حسين-دار المعارف-القاهرة-ط٦/١٩٦٣

٤- دليل الناقد الادبي-اضاءة لاكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا-د. ميجان الرويلي و د. سعد البازعي-المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء-ط/٢/٢٠٠٠

٥- في الادب الفلسفي-محمد شفيق شيّا-مؤسسة نوفل-بيروت-لبنان-ط١/١٩٨٠

٦- في الشعر الجاهلي – طه حسين - دار المدى -دمشق ط١/١٩٢٦

٧-مع ابي العلاء في سجنه-طه حسين-دار المعرف-القاهرة-١٩٦٣

٨-معاهد التنصيص على شواهد التلخيص-الشيخ عبد الرحيم بن احمد العباسي-حققه وعلق حواشيه وصنع فهارسه-محمد محي الدين عبد الحميد-عالم الكتب-بيروت-١٩٤٧

٩-معجم الادباء المعروف بارشاد الاريب الى معرفة الاديب-شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي-اعتنى بنسخه وتصحيحه-د.س.مرجليوث-مطبعة هندية-مصر-ط٢/١٩٢٣

١٠-من تاريخ الادب العربي-العصر العباسي الثاني(القرن الرابع الهجري) – طه حسين-دار العلم للملايين-بيروت-ط١/١٩٧٤
١١- موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر ابي العلاء المعري-د.زهدي صبري الخواجا-منشورات دار صبري

١٢- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان- لابي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان- تقديم-محمد عبد الرحمن المرعشي-دار احياء التراث العربي-بيروت-لبنان- ط/١ ١٩٩٧

الدوريات

١٣- على هامش الشعر الجاهلي-جريدة الحياة-١٦/١٠/٢٠٠٦

Sami Shahab Ahmed
Assistant Instructor
Unversity of Kirkuk
college of Education

Abstract

The literary field bears all the over flow of critical speeches, which depends on the innovative literary texts through analyzing their contents and to exposing their aesthetic sides and to determine the prominent influences which become higher through working till it reaches innovation in order to transmit or to make the experiment more close or the spreading idea in the text to the reader by an objective view and a balanced and flexible frame . The speeches are always coloured and multivariate accoroding to the idealogical variation and the theory or the dominant stream on the mind of the critic.

Because, the critic is slane of his idea,taste,trend,method and thinking stream. Which olominate him until his criticism impressions come to be clear do not go out of this track in all his literature with some changes which may suddenly happen because of the increase in his knowledge or to get crash with the technigues of that theory or that stream.

Taking this principle our nepocriticism demanded to indulge itself in the libyrihth of critical readings specifically the conversations of critical speech for "Taha Hussein" that of Abu-AL-Alaa' AL-Ma'ari , the lingwistic poet after reading his three books which he composed them for the sake of him to reach in what of this speech of lines and honest allusions which are captive of obiectivity or hidden hybrid which require questioning and make them prominent on the critical ground. The importance of choosing this topic is for asimple reason , which is the focus on Abi-AL-Ala'a AL-Ma'ari and Taha Hussein in our Arabic literature.since the comp0sing of Taha Hussein in for three books on Abi-Al-Alaa and his explanation to Al-Lizomiat even his gathering with a special group of specialized researchers professors all what had been said about Al-maari in a big book entitled "the definition of old researchs to Abi- Al-Alaa"as well as his writings to articles through out newspapers ,scientific and periodical magazines and the participation in public fairs these represent honest invitation from him to show his fine status which can not be excelled.the study has come in this humble research which is between the hand of the noble reader with a preface and general reading for the three books of

أحيانا	نادرا

Taha Hussein supported with conversations and conclusions the preface has included two main points (first)has proposed a simple explanation to the history of Abi Al-Alaa i-e his name,knowladge,books and other compositions as well as his death .(second)has proposed the important of critical reading and its ability to show the aesthetics of the speech,if the speech were critical,and to showing the extent of turbulence and variety in those speeches according to the thoughts and trends of critics.

As for the critical reading ,we have studied the book deeply and we have interacted and talked with them quietly and targeted style which has produced to the reader an enough vision which has been dectared by it or the composer has hidden behind its curtins.the study has came to declare from the historical and chronological order of time as a stand which can be used when reading his book.the book of "renewing the memorization of abi –al-alaa" was the first light which the Tahawian sheech has emerged from.Then with Abi-Al-Alaa in his prison till the sound of Abi-Al- Alaa.This matter had not been ended to the encystment in the field of show and analysing,but it had gone beyond to the side of conclusions and general framing to his speculations,and then to the indigenization of special frames of his speech on the orbit of his working with books and the extent of his recreation and renewing of his vitality in his other compositions.